جماليات الاتساع في المعنى وتعدده **أ.د/ عبد الحميد هنداوي**

دراسة نظرية تطبيقية في القرآن الكريم **الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم– جامعة القاهرة**

تمهيد :

يحاول هذا البحث أن يرصد أبرز الصور أو النماذج لاتساع المعنى وتعدده في القرآن الكريم ، وذلك بغية الوقوف على جماليات الأسلوب القرآني وإعجازه في توظيف ذلك الاتساع وتلك التعددية الدلالية لخدمة السياق القرآني ، لإضفاء العديد من الظلال الدلالية المتناغمة مع ذلك السياق.

ولا عجب في بحث كهذا أن تتضافر في خدمته علوم ومناهج عديدة ؛ فهو وإن كانت وجهته الأولى هي الوجهة البلاغية الجمالية التي تبحث في أسرار التعبير القرآني ؛فهو لا غنى له كذلك عن جملة من العلوم المترابطة المتضافرة في دراسة هذا الموضوع.

ومن ثم فإن عموده الأعظم هو علوم البلاغة العربية، ودراسة الأسلوب، مع الاستعانة بعلوم اللغة من نحو وصرف ومعجم ودلالة وفقه لغة، وغير ذلك بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى ضرورة الإفادة من بحوث المفسرين والأصوليين في هذا الباب فقد أدلوا فيه كذلك بدلو عظيم .

كما تتضافر في هذا البحث عدَّة مناهج كذلك ، منها منهج التحليل البلاغي، ومنهج التحليل الأسلوبي، لرصد السمات الأسلوبية لهذا الكتاب المعجز ، وتتضافر في هذا البحث الدراسة النظرية التي ترصد أشكال هذا التعدد وصوره وأسبابه مع الدراسة التحليلية التطبيقية التي تعرض لنماذج هذا التعدد عرضا تحليليا يستجلي جماليات النص القرآني .

تعدد المعنى : حقيقته وأشكاله :

يمكننا أن نعرِّف تعدد المعنى المراد – في هذا البحث – بأنه عبارة عن : **دلالة الكلمة أو الجملة القرآنية على أكثر من معنى يتفق مع السياق الذي وردت فيه ، دون قرينة جازمة ترجِّحُ أحد هذه المعاني ، وتنفي ما عداها.**

ومعلوم أن دلالات الكلم والجمل في اللغة العربية قد تتعدد ، وذلك باختلاف السياق الذي وردت فيه ؛ فالكلمة على سبيل المثال قد تتعدد مدلولا ا : إما لتعدد الواضع – أي باعتبار لهجات العرب المختلفة – وإما لاختلاف السياق والمقام الذي وردت فيه ، وما يصاحبه من قرائن ومؤثرات واعتبارات مختلفة ، وغير ذلك.

وإما لترددها بين الحقيقة وا از ، وإما لاحتمال صيغتها أكثر من معنى من المعاني الوظيفية ، أو احتمال الموقع الإعرابي أكثر من وجه من وجوه الإعراب.[1]

كما كان للعدول عن المطرد أثره كذلك في تعدد أوجه المعنى واتساعه تبعا لتعدد أوجه الإعراب ،أو لاتساع الدلالة اللغوية أو غير ذلك ، وستأتي أمثلة ذلك قريبا في موضعه .

بين تعدد المعنى واتساعه :

يمكننا أن نميز – في هذا البحث – بين ما يسمى تعدد المعنى ،وما يمكن أن يسمى باتساع المعنى :

أولا : تعدد المعنى (التعدد الحقيقي) :

ونقصد به أن يكون ثمة تعدد فعليّ لمعنى الكلمة أو الجملة القرآنية ؛ وذلك كما في المشترك اللفظي – على مستوى الكلمة – وكما في بعض نواتج وجوه الإعراب – على مستوى الجملة .

فحينما يحتمل للسياق أن تفسر العين بأ ـا الباصرة أو البئر أو الجاسوس دون قرينة ترجح أحد هذه المعاني يكون ذلك تعددا حقيقيا ؛ وذلك لاستقلال كلٍّ واحد من هذه المعاني عن غيره بحيث لا يمكن الجمع بينها في الدلالة على شيء واحد.

ومن أمثلته في القرآن كلمة [عسعس]:" قال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما"[٢]

وحينما يحتمل السياق في الموقع الإعرابي للكلمة معنى الفاعلية ومعنى المفعولية مثلا يكون ذلك من التعدد الحقيقي لعدم إمكان الجمع بين المعنيين في كلمة واحدة ، وذلك كما في قوله تعالى :" أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" [٣]

حيث يحتمل السياق في كلمة (مَن) معنى الفاعلية ، أو المفعولية .

وترجيح أحد المعنيين هنا مهما كانت قرائنه لا ينفي احتمال إرادة المعنى الآخر بوجه من الوجوه ؛ ومن ثم فالجزم بأحد المعنيين مع استبعاد الآخر هنا ضرب من التعسف لا يمكن قبوله .

ثانيا : (التعدد الشكلي) اتساع المعنى:

وذلك حينما يكون التعدد متوهما ؛ نظرا لكون مفردات المعنى ما هي إلا أجزاء تتكامل فيما بينها لإنتاج الدلالة الكليَّة للكلمة أو الجملة التي ننظر في دلالتها ، وذلك كما في إيثار كلمة مؤمن على نظائرها مثل موقن ومصدق ونحوهما في قوله تعالى : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[٤] .

ومن ثم فإن ما يبدو من مثل هذا النوع على أنه من تعدد المعنى ليس تعددا في الحقيقة ، وإنما هذه المفردات المذكورة إنما هي أجزاء المعنى المتركب من تلك الأجزاء ؛ فلأجل ذلك سميته باتساع المعنى أو بالتعدد الشكليِّ في مقابل التعدد الحقيقي .

ومن ذلك أيضا أن تكون اللفظة في الآية من قبيل المتواطئ اللفظي الذي يصدق على مفردات كثيرة فيكون هذا النوع من التفسير بضرب المثال .

ومن أمثلته مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ تعالى : "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ" [٥]

فَمَعْلُومٌ أَنَّ كلَّ واحد من هذه الأقسام يتناول أصنافا كثيرة .[٦]

ومن ثم فلا يدخل في تعدد المعنى ما يذكر من أمثلة النوع أو الجنس الواحد ؛ وذلك كما يفسر فعل الطاعات مثلا بالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ الحقوق وغير ذلك من أنواع الطاعات.

فمثل ذلك يمكن أن يعد من باب الاتساع في المعنى لا من باب التعدد .

غير أننا يمكن أن نلاحظ أنَّ بعض أنواع التعدد يمكن أن تعدَّ ضربا من الاتساع في المعنى ، وذلك كاشتراك الكلمة في أكثر من موقع إعرابي لا يتنافى أحدهما مع السياق .

ولا يمكننا أن نصوغ القضية على هذا النحو ؛ فنقول : إن كلَّ تعدد للمعنى هو ضرب من التوسع فيه ، ولكن ليس كلُّ اتساع في المعنى هو ضرب من التعدد فيه ؛ وذلك لأن بعض صور التعدد لا يمكن أن نطلق عليها اتساعا لأ ـا تعرف باسم خاص ـا وذلك كالمشترك اللفظي مثلا ؛ ولكننا لكي لا نشقق الكلام يمكننا أن نعد كلَّ تعدد ضربا من الاتساع في المعنى ؛ وذلك بعد إضافة قيد مهم يعدل صياغة الكلام على الوجه التالي : فنقول :

(إن كلَّ تعدد للمعنى لا يأباه السياق هو ضرب من التوسع فيه)

ومن ثم يمكننا أن نصطلح على اعتبار جميع الصور الآتي ذكرها في البحث هي صور وأضرب من اتساع المعنى ، وهو ما سوف يسير البحث عليه .

لكننا يمكننا أن نقسم صور وأضرب الاتساع في المعنى إلى الأقسام التالية :

١- اتساع الدلالة المعجمية .

٢- اتساع الدلالة الصرفية .

٣- اتساع الدلالة النحوية .

٤- اتساع الدلالة البيانية

٥- اتساع الدلالة الرمزية

أولا : اتساع الدلالة المعجمية :

ومن أهم مظاهره :

١- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي

٢- اتساع الدلالة من خلال المتواطئ

٣- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة أو المجاز

٤- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

٥- اتساع الدلالة من خلال جوامع الكلم

وسوف أعرض هنا لكل واحدة من هذه الظواهر بشيء من التفصيل :

١- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي :

الاشتراك بين الألفاظ واقع في لغة العرب بما لا ينكره من له أدنى اطلاع على لغتهم ، وذلك كما في لفظ (العين – الجون – الشفق – القرء – عسعس ...الخ)[٧]

"وإذا عرف وقوع الاشتراك لغة فهو أيضاً واقع في كلام الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: " والليل إذا عسعس " فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره وهما ضدان هكذا ذكره صاحب الصحاح.[٨]

و" مذهب الشافعي والقاضي أبي بكر أن المشترك نوع من أنواع العموم."[٩]

وقد يقع الاشتراك في كتاب الله تعالى محفوفا بالقرائن الدالة على أحد معنييه أو معانيه ؛ ففي قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ }"إِنْ قِيلَ : مَا وَجْهُ قَوْله تَعَالَى : { بِدَيْنٍ } وَالتَّدَايُنُ لا يَكُونُ إلا بِدَيْنٍ ؟ قِيلَ لَهُ : لأَنَّ قَوْله تَعَالَى { تَدَايَنْتُمْ } لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الدِّينِ الَّذِي هُوَ الْجَزَاءُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } يَعْنِي يَوْمَ الْجَزَاءِ ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى (تَجَازَيْتُمْ) فَأَزَالَ الاشْتِرَاكَ عَنْ اللَّفْظِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { بِدَيْنٍ } وَقَصَرَهُ عَلَى الْمُعَامَلَةِ بِالدَّيْنِ ؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى جِهَةِ التَّأْكِيدِ وَتَمْكِينِ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ."[١٠]

ومعلوم أن كونه توكيدا لا ينفي كذلك كونه قرينة محددة لأحد معاني هذا المشترك .

وقد تدق القرينة فلا تكون لفظية ظاهرة ؛ وإنما تكون عقلية تحتاج إلى تدبر واستخراج ؛ فمن ذلك لفظ السفه :في نحو قوله تَعَالَى : **{ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا }**

" قِيلَ إنَّ أَصْلَ السَّفَهِ الْخِفَّةُ ..وَيُسَمَّى الْجَاهِلُ سَفِيهًا لأَنَّهُ خَفِيفُ الْعَقْلِ نَاقِصُهُ ؛ فَمَعْنَى الْجَهْلِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ السَّفِيهِ .

وَالسَّفِيهُ فِي أَمْرِ الدِّينِ هُوَ الْجَاهِلُ فِيهِ ، وَالسَّفِيهُ فِي الْمَالِ هُوَ الْجَاهِلُ لِحِفْظِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ اسْمُ السُّفَهَاءِ لِجَهْلِهِمْ وَنُقْصَانِ تَمْيِيزِهِمْ ، وَالسَّفِيهُ فِي رَأْيِهِ الْجَاهِلُ فِيهِ وَالْبَذِيُّ اللِّسَانِ يُسَمَّى سَفِيهًا لأَنَّهُ لا يَكَادُ يُنْفِقُ إلا فِي جُهَّالِ النَّاسِ وَمَنْ كَانَ خَفِيفَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ .

وَإِذَا كَانَ اسْمُ السَّفِيهِ يَنْتَظِمُ هَذِهِ الْوُجُوهَ رَجَعْنَا إلَى مُقْتَضَى لَفْظِ الآيَةِ فِي قَوْله تَعَالَى : { فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا } فَاحْتَمَلَ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْجَهْلَ بِإِمْلاءِ الشَّرْطِ وَإِنْ كَانَ عَاقِلا

مُمَيِّزًا غَيْرَ مُبَذِّرٍ وَلا مُفْسِدٍ ..، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَوْلَى بِمَعْنَى الآيَةِ ...لأَنَّ الْجَهْلَ يُسَمَّى سَفَهًا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ."[١١]

وقد يؤتى باللفظ المشترك لغرض بلاغي أو نكتة جمالية كما في قوله تعالى : "وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا" النساء :(٢٢) فلفظ (فاحشة): "يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ فَاحِشَةٌ فَلا تَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، وَهَذَا لا يَكُونُ إِلا بَعْدَ قِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ عَلَيْهِمْ بِتَحْرِيمِهِ ،...وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا } .. الْفَاحِشَةُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يَقَعُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمَحْظُورَاتِ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي قَوْلِه تَعَالَى : { إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } أَنَّ خُرُوجَهَا مِنْ بَيْتِهِ فَاحِشَةٌ .

وروي أن الفاحشة في ذلك أن تستطيل بلسانها على أهل زوجها ، وقيل فيها : إنها الزنا . فَالْفَاحِشَةُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ مُوَاقَعَةَ الْمَحْظُورِ ، وَلَيْسَ يَخْتَصُّ بِالزِّنَا دُونَ غَيْرِهِ حَتَّى إِذَا أُطْلِقَ فِيهِ اسْمُ الْفَاحِشَةِ كَانَ زِنًا ، وَمَا كَانَ مِنْ وَطْءٍ عَنْ عَقْدٍ فَاسِدٍ فَإِنَّهُ لا يُسَمَّى زِنًا "[١٢]

ومع أن أنكحة الجاهلية الفاسدة لا تسمى زنا ؛ فقد سماها الله تعالى فاحشة ، وهي مما يسمى به الزنا تقبيحا لذلك الفعل وتنفيرا منه ، فأتى باللفظ المشترك تحقيقا لذلك الغرض البلاغي .

- ومن ذلك أيضا كلمة (عسعس) ، و(قسورة) ، و(ربع) ،و (آية)...إلخ ونحو ذلك .
- فكلمة (عسعس) في قوله تعالى :" **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ** "[١٣]تأتي بمعنى الإقبال والإدبار ، "عن مجاهد قوله:(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) قال: إقباله، ويقال: إدباره".[١٤]

و لا شك أن كلا من إقبال الليل وإدباره ساعتان شريفتان ، وآيتان عظيمتان دالتان على قدرة الله تعالى ؛ فلذا فقد أقسم ما تنويها بشأ ما ، وتعظيم النبي ρ لهاتين الساعتين بالذكر والصلاة والتسبيح ثابت بنصوص كثيرة ليس هنا محل ذكرها ؛ لذا فلا يبعد أن يراد بالقسم كلا من هاتين الساعتين الشريفتين ن وسياق الكلام يساعده ولا يعارضه .

- وكذلك لفظ (قسورة) في قوله تعالى : **"فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ"**[١٥]

ذكر ابن جرير الاختلاف فيها ؛ فمنهم من قال: الرماة ومنهم من قال هو الأسد.[١٦]

والسياق لا ينفي أحد المعنيين بل يحتملهما جميعا ؛ فالحمر بلا شك تفر من الرماة كما تفر من الأسد ؛ فقد أثبت لها الفرار من كل من يشمله اسم القسورة ، ويؤيد ذلك مجيء قسورة منكرة .

ولا شك أن ذلك مما يزداد به المعنى جمالا وقوة فهذه الحمر المضروبة مثلا للكافر المعرض تفر من كل من تعرض لها أشد الفرار ؛ إذ تستشعر فيه خطرا داهما عليها ؛ وكذلك هؤلاء

الكافرون المعرضون يحسبون كل متعرض لهم بالدعوة إلى الله خطرا داهما ، وشرا محدقا ، وذلك لكون ما يأتي به من الهدى معارضا أهواءهم أتم المعارضة .

– ومن ذلك قوله تعالى :{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعبثون}:" عن مجاهد : " قال: "شرف ومنظر"...وعن قَتادة.. قال: "بكلّ طريق".[١٧]

فعلى ذلك فكلمة (ريع) من المشترك اللفظي ؛ إذ تعني الطريق أو الشرف وهو الموضع العالي أو المنظر ، ولا مانع من اجتماع تلك المعاني جميعا ؛ حيث لا يأباها السياق ، وهذه هي العادة في اتخاذ الآيات التي يتباهى ا أصحاب الحضارات ؛ إذ يتخيرون لها موضعا مستشرفا للأعين ، ذي منظر حسن ، في طريق الناس حتى تقع الأعين على تلك الآية التي يتباهون ا .

وكذلك كلمة { آيَةً } قيل :"أي: معلما بناء مشهورًا"[١٨]

وقيل :"الآية هي الدلالة والعلامة"[١٩]

فعلى ذلك فهي من المشترك اللفظي كذلك ، والسياق محتمل لهذه المعاني جميعها ؛ فهم يتخذون ذلك الأثري يكون دلالة على قو م ، وعلامة على حضار م ن أو على مدينتهم ؛ بحيث تعرف به وتعلم به وتشهر به ، فيجتمع فيه كلُّ هذه المعاني أنه معلم وبناء مشهور ودلالة وعلامة .

وفي هذا كلّه تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم ، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني بوسائل وطرق شتى .

٢– اتساع الدلالة من خلال المتواطئ :

يفرق الأصوليون بين المشترك والمتواطئ وذلك أن "اللفظ المشترك هو اللفظ الواحد الموضوع لعدة معان وضعًا أولا"(٢٠).

أما المتواطئ: فهو لفظ يطلق على أشياء متغايرة ولكنها متفقة في المعنى الذي وضع اللفظ له مثل لفظ "لون" فالسواد لون، والبياض لون، والحمرة لون.

ومثل لفظ "رجل" التي تطلق على: زيد وعمرو ومحمد و...

ومثل لفظ "جسم" فهي تطلق على السماء والأرض، والإنسان، والحيوان، وعلى كل شيء له ثقل ويشغل حيز.

فقوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**...﴾ الحديد:١.

ورد فيه لفظ متواطئ يدل على العموم وهو لفظ "ما" ا تعني الإنسان، والملائكة والحيوان والجماد... فاللفظ المتواطئ من ألفاظ العموم.[٢١]

فمِثَالُ المتواطيء مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ تعالى : "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ"[٢٢] ؛فَمَعْلُومٌ أَنَّ كلَّ واحد من هذه الأقسام يتناول أصنافا كثيرة ، الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَات.

وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ..[٢٣]

وترجع قيمته الجمالية – في الغالب – إلى ما فيه من إيجاز بالإجمال المغني عن التفصيل بأفراد ما أجمل لشيوع العلم ـا .

فمن أمثلته أيضا قَوْله تَعَالَى : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ }" قَدْ تَضَمَّنَ الأمْرَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذِكْرُنَا إيَّاهُ عَلَى وُجُوهٍ .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ أَقَاوِيلُ عَنْ السَّلَفِ ، قِيلَ فِيهِ : اُذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي " ، وَقِيلَ فِيهِ : " اُذْكُرُونِي بِالثَّنَاءِ بِالنِّعْمَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّنَاءِ بِالطَّاعَةِ " وَقِيلَ : اُذْكُرُونِي بِالشُّكْرِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ " وَقِيلَ فِيهِ : " اُذْكُرُونِي بِالدُّعَاءِ أَذْكُرْكُمْ بِالإجَابَةِ " .

وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي ، وَجَمِيعُهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى لِشُمُولِ اللَّفْظِ وَاحْتِمَالِهِ إيَّاهُ .
٢٤"

ولا شك أن استخدام لفظ الذكر ونحوه مجملا فيما يعرف تفصيله بالتفكر والتأمل – ولا يرتاب في معرفته – فيه من الإيجاز واختصار الكلام ما هو بأعلى المنازل من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا : "البلاغة الإيجاز "[٢٥].

ونحوه ما جاء في تفسير قوله تعالى :"وإذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ "فقد ورد فيه أربعة تأويلات :

أحدها يعني عملُ ـن عملٌ مثل عملها ، فيحشر العامل بالخير مع العامل بالخير إلى الجنة ، ويحشر العامل بالشر مع العامل بالشر إلى النار ، قاله عطية العوفي : حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة .

الثاني : يزوج كل رجل نظيره من النساء فإن من أهل الجنة زوّج بامرأة من اهل الجنة ، وإن كان من أهل النار زوّج بامرأة من أهل النار ، قاله عمر بن الخطاب ، ثم قرأ :{ احْشُروا الذين ظلموا وأزواجهم } الثالث فمعناه ردتّ الأرواح إلى الأجساد ، فزوجت ـا أي صارت لها زوجاً ، قاله عكرمة والشعبي . الرابع : أنه قرن كل غاو بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، حكاه ابن عيسى .ويحتمل خامساً : زوجت بأن أضيف إلى كل نفس جزاء عملها ، فصار لاختصاصها به كالتزويج."[٢٦]

وهذه المعاني كلها تنتسب إلى الكلمة بنسبة واحدة ؛ إذ إن كلٌّ ذلك يعد تزويجا ؛ فهي إذا من المتواطئ ، وحمل الكلمة على كل هذه المعاني لا يأباه السياق بل يؤيده ويقويه ن والكلمة ذه المعاني كشجرة ذات ظلال وأغصان وارفة كلها تمت إليها بصلة ونسبة واحدة .

٣ – اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة أو المجاز :

من الوجوه التي تتعدد ا الدلالة وتتسع تردد الكلمة بين الحمل على الحقيقة وا از ؛ وذلك قد يؤتى به لإرادة الحمل على كلا المعنيين الحقيقي وا ازي طلبا للاتساع في المعنى إذا ما اقتضاه السياق .

وأمثلته عديدة في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

قوله تعالى :"وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" (المدثر:٤)

من المفسرين من حملها على الحقيقة ومنهم من حملها على ا از ، ومنهم من جوز الجمع بينهما :

فقد رجح أبو حيان الحقيقة رغم حكايته للأقوال المرجحة للمجاز [27]

واختار أبو حيان أن "الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأ ا الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي"[٢٨]

ومال الألوسي إلى ا از فقال:"{ وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ } تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال و ذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه....

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة .

وقيل كني ا عن الجسم كما في قو ليلى وقد ذكرت إبلا ركبها قوم وذهبوا ا :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى ... لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد ا أيضاً نحو ما تقدم . ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه.

وقيل على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة القوة العلمية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه وقيل إنه أمر له ρ بالتخلق بالأخلاق الحسنة .... وقيل الثياب كناية عن النساء "[٢٩]

ومع ميل الألوسي للمجاز فإن ظاهر كلامه في الآية التالية عدم استبعاد الحقيقة وكأنه يجوز الجمع بينهما قال :"والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجر الجفاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً

بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه { وثيابك فطهر } [المدثر : ٤]"[٣٠]

حيث حمل { وثيابك فطهر } على تطهير الظاهر ، ولا شك أن أول ما يدخل فيه تطهير الثياب .

أما ابن كثير فقد حكى الأقوال السابقة ثم رجح الجمع بين الحقيقة وا ـاز ، فذكر من ذهب إلى ا ـاز كقول القائل :" لا تلبسها على معصية ولا على غَـدْرَة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَإني بحمد الله لا ثوبَ فَاجر ... لبستُ ولا من غَدْرَة أتَقَنَّعُ ....

وقال الشاعر :

إذا المرءُ لم يَدْنَس منَ اللؤم عِرْضُه ... فَكُلّ ردَاء يَرْتَديه جَميلُ ...

وقال العوفي ، عن ابن عباس: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } يعني لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية. ."[٣١]

ثم ذكر قول من ذهب إلى الحقيقة فقال :

"وقال محمد بن سيرين: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه.

وهذا القول اختاره ابن جرير."[٣٢]

ثم قال :"وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أفاطمَ مَهلا بعض هَذا التَدَلُّل ... وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْري فأجْمِلي ...

وَإن تَكُ قَد سَ ـاءتك مني خَليقَةٌ ... فَسُلّي ثِيَابي مِن ثيابك تَنْسُلِ

وقال سعيد بن جبير: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } وقلبك ونيتك فطهر."[٣٣]

والذي نراه أن السياق في هذه السورة الكريمة لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازا ؛وذلك لأن الداعي إلى الله ؛ بله أكرم الرسل ينبغي أن يجتمع له صلاح الظاهر والباطن المشتمل على حسن المظهر والمخبر ، فيجمع بين حسن السمت المشتمل على أكمل الهيآت التي ترغب في الإقبال عليه وتحول دون النفرة منه ، مع صلاح الباطن واستقامة الخلق بحيث لا يعثر له على هفوة تكون حجة عليه وعلى دعوته .

ومجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكر مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز ، وكونه من لدن حكيم حميد .

ومن ذلك قوله تعالى : " **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** "[٣٤]

حيث جعل الزاد جنسا يشمل كلا النوعينالحقيقي الحسي المعهود ، أو ا ـازي المعنوي وهو تقوى الله تعالى ؛ فحل الزاد على معنييه الحقيقي وا ـازي لما في ذلك من اتساع في المعنى يقتضيه السياق والمقام ؛ فإن المقصود هو الاعتدال في الجمع بين الدنيا والآخرة .

٤– اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

ذهب ابن كثير كذلك في أكثر من موضع إلى جواز الجمع بين المعنى اللغوي والشرعي ما دام السياق محتملا لهما ، وذلك كما في قوله تعالي : { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} قال:"الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النِّصَب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: { وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}[٣٥].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [٣٦] ، وكقوله: { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [٣٧]، على أحد القولين في تفسيرها."

فقد حكى أقوال المفسرين هنا في معنى الزكاة ، وهي لا تخرج عن معنيين :

١– المعنى الشرعي :وهو الزكاة الشرعية (بمعنى إخراج قدر محدود من المال إلى مستحقيها بشروطها)، وهي إما المفروضة على القول المرجوح ؛ لعدم فرضيتها في زمان نزول النص ، وإما بمعنى الصدقة وقد كانت مشروعة آن ذاك .

٢– المعنى اللغوي : وهو يرجع في أصله إلى معان منها الطهر والنماء والصلاح [٣٨]، فكأن المقصود هنا هو تطهير النفس وإصلاحها وتنمية جوانب الخير فيها ، على نحو قوله تعالى : " **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**"[٣٩]،وقوله تعالى :" **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** "[٤٠]

وبعد حكايته للقولين الواردين في هذا الموضع قرر مذهبه في جواز الجمع بين كلا المعنيين اللغوي والشرعي بشرط احتمال السياق لهما فقال :

"وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.[٤١]

وقد حكى نحو هذين القولين في قوله تعالى:"وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ "[٤٢]

والذي ذهب إليه ابن كثير في هذا الموضع من جواز الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي لا غبار عليه ؛ إذ السياق يؤيده لاحتماله كلا المعنيين ؛ وذلك لأن السياق سياق ذكر لجملة من الخصال الحميدة التي اتصف ـا المؤمنون ، واستحقوا ـا المدح والثناء من الله تعالى ،

ووعدهم عليها بالفلاح في مطلع تعداد تلك الصفات حيث بدأ الله تعالى السياق بقوله تعالى : "**قد أفلح المؤمنون** "[٤٣]

ولا شك أن كلا الصفتين هما من صفات المؤمنين اللتين لا يتحقق فلاحهم إلا ما ؛ بل إن المتأمل لهاتين الصفتين يلحظ تكاملهما وترابطهما بحيث لا يتصور إحداهما دون الأخرى ؛ وإلا فكيف يتصف بزكاة النفس وصلاحها وطهرها من قسا قلبه فلا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وكيف يرق القلب لإنفاق المال وبذله للغير دون مقابل دنيوي ما لم يكن قلبا زاكيا صالحا ؟!

ولذا فقد ذم الله تعالى المشركين في الآية الأخرى وتوعدهم بالويل بسبب أ م (لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) وقد سوغ ابن كثير حملها على المعنيين كذلك ، وهو صحيح لما ذكرناه ؛ فإذا كان المعنيان المذكوران هما سبب فلاح المؤمنين فلا جرم يكونان سبب خسران المشركين والكافرين كذلك ، وقد جمع الله تعالى في وصفهم بين هاتين الصفتين (زكاة النفس وبذل الصدقة) وبين ترابطهما فقال : "**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)**"[٤٤]

ومما يستشهد به في هذا المقام كذلك لجواز الحمل على المعنيين اللغوي والشرعي قوله تعالى : ﴿ولا تجهَرْ بصلاتكِ وَلا تخافَتْ ِ ا ﴾:

فقد أورد ابن جرير الأقوال في معنى الآية وحاصلها :

١- قسم حمل الصلاة على المعنى اللغوي وهو الدعاء.

٢- وقسم حملها على المعنى الشرعي المعروف بما تشتمل عليه من قراءة وذكر

٣- وقسم حملها على بعض أجزاء المعنى الشرعي وهو القراءة ؛ فكأنه جعلها من ا از المرسل ذي العلاقة الجزئية .[٤٥]

فمما أورده ابن جرير من أقوال السلف في تفسيرها ما ورد "عن عطاء ، قال يقول ناس إ ا في الصلاة، ويقول آخرون إ ا في الدعاء."[٤٦]

وبعد استقصائه جميع الأقوال التي سبق ذكر مجملها قال :"فالذي هو أولى وأشبه بقوله(وَلا تجهَرْ بصلاتكِ وَلا تخافَتْ ِ ا) أن يكون من سبب ما هو في سياقه من الكلام، ما لم يأت بمعنى يوجب صرفه عنه، أو يكون على انصرافه عنه دليل يعلم به الانصراف عما هو في سياقه.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه،

وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت ـا فلا يسمعها أصحابك(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)"

فنلاحظ أن ابن جرير قد سلك منهجا صائبا حيث احتكم إلى دلالة السياق فرأى أن السياق لا يأبى شيئا من الأقوال الآنفة فجمع بينها جميعا في عبارته السابقة .

٤– اتساع الدلالة باستثمار جوامع الكلم:

وذلك حيث تكون مفردات المعنى أجزاء تتكامل فيما بينها لإنتاج الدلالة الكليَّة للكلمة أو الجملة التي ننظر في دلالتها ، وذلك كما في إيثار كلمة مؤمن على نظائرها مثل موقن ومصدق ونحوهما في قوله تعالى : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[٤٧] ؛حيث تفيد من المعنى ما لا تفيده لو قال : (بمصدِّق لنا ولو كنا صادقين) ، وذلك لأن قوله : (بِمُؤْمِنٍ لَنَا) ، أي : لست مصدِّقًا لنا تصديق يقين واطمئنان وركون لما نقول حتى لو علمتَ أن كلامنا يوافق الواقع ، فلو أنه جاء بلفظة (بمصدِّق) بدل لفظة (بمؤمن)؛ لذهب هذا المعنى ، مع أن اللفظتين تشتركان في معنى التصديق .

فمن ثم نلاحظ أن المعنى هنا يتركب من عدَّة أجزاء هي مفردات الدلالة الكليَّة لهذه الكلمة ؛ ومن ثم فإن دلالة هذه الكلمة (مؤمن) تتركب من هذه المفردات :[مصدِّق – موقن – مطمئن – راكن] فليس إذا ثمة تعدد حقيقي للمعنى ؛ إذ إن معنى الكلمة لا يصدق على كلٍّ واحد من هذه المفردات ؛ بل لا يصدق إلا على مجموعها ، أي : يصدق عليها مجتمعة لا منفردة .

ومن ثم فإن ما يبدو من مثل هذا النوع على أنه من تعدد المعنى ليس تعددا في الحقيقة ، وإنما هذه المفردات المذكورة إنما هي أجزاء المعنى المتركب من تلك الأجزاء ؛ فلأجل ذلك سميته باتساع المعنى أو بالتعدد الشكليِّ في مقابل التعدد الحقيقي .

ومن ذلك قوله تعالى :" يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " [٤٨]

فنلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحمل من المعاني والظلال المناسبة لهذا السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو – على الأصح – مقاربة لها ، مثل : (تستأذنوا)التي فسرها ـا جمع من المفسرين .

"قال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا."[٤٩]

وقال الألوسي :"{ حتى تَسْتَأْنِسُواْ }أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحا ـا "[٥٠]

وقال مجاهد: "{ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } قال: تنحنحوا –أو تَنَخَّموا."[٥١]

غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكلتا الكلمتين (تستأنسوا – تستأذنوا) – أو الكلمات الأخرى التي فسؤت ـا الكلمة باعتبارها من لوازم الاستئناس –تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دو ـا .

قال الزمخشريّ :"{ تَسْتَأْنِسُواْ } فيه وجهان :

أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : { لا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبى إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ } [٥٢] وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن .

والثاني : أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً ، أي : تعرفت واستعلمت . ومنه بيت النابغة :

عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ ... ويجوز أن يكون من الإنس ، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : قلنا : يا رسول الله ، ما الاستئناس؟ قال : " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلاّ رجع "[٥٣]

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالا كثيرة ،وأ ـا لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحنح والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت ، وأ ـا تحقق الأنس والائتناس بين الطرفين (الزائر والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى :" **فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" النور:(٢٨)**

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له ارجع .

" إن الاستئناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه ، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله ، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : (استأنس الشرطيُّ ، أو جابي الضرائب ، أو الدائن) إنما هو الاستئذان ، ليس منه حسُّ إيناس ، كما

لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق ، أو سماع هزيم رعد ، وزئير وحش .)[٥٤]

ثانيا : اتساع الدلالة الصرفية :

ومن أهم مظاهره :

١- اتساع الدلالة باستثمار المعنى الوظيفي للصيغة .

٢- اتساع الدلالة من خلال اختيار صيغة ذات معنى متعدد .

٣- اتساع الدلالة من خلال العدول الصيغي .

وسوف أعرض هنا لكل واحدة من هذه الظواهر بشيء من التفصيل :

١- اتساع الدلالة باستثمار المعنى الوظيفي للصيغة .

من مزايا اللغة العربية أن الصيغة بما لها من معنى وظيفي قد تغني عن كثير من الكلمات ، كان يمكن الاحتياج إليها للتعبير عن المعنى لو لم تستخدم الصيغة المنوطة بذلك المعنى .

على سبيل المثال : لو نظرنا إلى صيغة اسم الفاعل ، والفعل المضارع في قوله تعالى :" أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (الملك :١٩)"

نلاحظ أنه لما كان غالب حال الطير في السماء هو صف الأجنحة استخدمت صيغة اسم الفاعل التي تدل على الثبوت ، ولما كان القبض يتجدد أحيانا حالا بعد حال استخدم الفعل المضارع ، ولو أردنا التعبير عن هذا المعنى بغير هاتين الصيغتين لاحتجنا أن نقول : (أولم يرو إلى الطير فوقهم يصففن أجنحتهن على الدوام ويقبضن أحيانا) وفيه من الطول والكلفة ما فيه ؛ فمن ثم كان في استعمال الصيغة توسعة للمعنى مع قلة اللفظ .

٢- اتساع الدلالة من خلال اختيار صيغة ذات معنى متعدد .

هذه الظاهرة من الظواهر المهمة فى موضوع هذا البحث ؛ حيث تشترك المعانى فى الصيغة الواحدة، فتدل على معان متعددة قبل أن يتحدد المعنى المراد بواسطة القرائن، فصيغة فعيل مثلا تأتى للواحد والجمع، قال أبو عبيدة فى قوله تعالى: (وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)[٥٥] العرب قد تجعل فعل الجميع على لفظ الواحد، قال: "إن العواذل ليس لى بأمير"[٥٦]

فهذه الصيغة (فعيل)التى مثلنا ـا: تدل على معان كثيرة؛ فهى إما أن تدل على مفرد أو جمع، والمفرد إما جامد أو مشتق، والجامد: اسم ذات أو اسم معنى: فاسم الذات نحو: سبيل – طريق – يمين – قميص – بعير – غدير – سرير – رغيف. . .إلخ.

واسم المعنى وهو المصدر: والغالب أن يدل على صوت مثل: زئير – خرير – صهيل – زفير – شهيق – نقيق – يق – أنين .. إلخ وقد يدل على سير نحو: رحيل – دبيب.

أما المشتق: فهو يأتى على أربعة أنواع:

(١) صفة مشبهة: وهذا مصوغ من مصدر الثلاثى اللازم للدلالة على من قام به الفعل على جهة الثبوت مثل: كريم، وعظيم وفصيح، وعسير، وعزيز.

(٢) صيغة مبالغة: وهذا محول عن اسم الفاعل من الثلاثى متعديا كان أم لازما للدلالة على كثرة وقوع الفعل مثل: عليم- قدير- شهيد- حفيظ.

(٣) ما كان بمعنى اسم الفاعل من غير الثلاثى: وهذا إما أن يكون بمعنى" مفعل" من أفعل، مثل: نذير، أليم، وجيع.

وأما أن يكون بمعنى مفاعل من فاعل مثل: جليس - رقيب - أكيل - نديم

(٤) ما كان بمعنى اسم المفعول من غير الثلاثى، مثل: قتيل وجريح وأسير.

أما صيغة فعيل الدالة على الجمع، فثلاثة أنواع:

١- اسم جنس يفرق بينه وبين مفرده بتاء التأنيث مثل: شعيرة، وشعير، وسفينة وسفين، وركية وركيّ، ومطية ومطيّ. . .إلخ

٢- اسم جمع: وهو ما ليس له واحد من لفظه مثل: قطيع، فريق ، قبيلة، فصيلة، عشيرة.

٣- جمع تكسير مثل: عبد وعبيد، ضأن وضئين، كلب وكليب، حاج وحجيج، حمار وحمير، نخل ونخيل [٥٧]

فهذه الصيغة وحدها تشترك بين عدد كبير من المعانى -كما سبق بيانه — وهذا يدلنا على مدى تعقد الأمر وتشابكه فى هذا النوع من الصيغ.[٥٨]

وصيغة (أفعل) كذلك من خير الأمثلة على ما نحن فيه فقد ذكروا لها دلالات عديدة .)[٥٩].[٦٠]

ويكاد يكون هذا أمرا متقررا كذلك فى الدراسات الحديثة فى علم اللغة[٦١]. وهذا يصدق على كل اللغات[٦٢].وهذا ما يقرره د/ تمام حسان تحت عنوان (تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد)[٦٣].

والحقأن أمثلة ونماذج تلك الظاهرة من الكثرة بحيث تكاد تمثل ظاهرة أسلوبية يتميز ـا صيغة الكلمة فى القرآن الكريم خاصة؛ بل رأيت أن هذه الظاهرة من أوضح البراهين الدالة على الإعجاز البيانى لكتاب الله المعجز.

فمن أمثلتها: قوله تعالى(وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزلاً مُّبَارَكا وَأَنْتَ خَيْرُ المنزلِين)[٦٤]عبرت الآية بصيغة (مفعل) فى (منزلا) وهذه الصيغة صالحة لكى تكون اسم مفعول من الفعل (أنزل) ومصدرا منه واسم مكان[٦٥].

وهى هنا فى الآية تحتمل أن تكون مصدرا أى: أنزلنى إنزالا مباركا، وتحتمل أن تكون اسم مكان أى أنزلنى مكانا مباركا[٦٦]. ويصعب فى مثل هذا الموضع أن نجزم بأحد المعنيين، والذى نرجحه والله أعلم بمراده أن كلا المعنيين مراد فالسياق لا يأبى أحدهما، فالحمل على المصدر يجعل المراد طلب البركة من الله فى الحدث نفسه فيكون هبوطه ونزوله مباركا من الله تعالى، والحمل على المكان يجعل المراد طلب البركة من الله تعالى فى المكان الجديد الذى رست عليه سفينة نوح عليه السلام، ولا شك أن كلا الأمرين كانا مطلوبين لنوح عليه السلام أن يبارك الله له فى إنزاله وفى مكان نزوله، ومن ثم فلا مانع هنا فى هذا السياق من حمل الصيغة على كلا معنييها ويكون ذلك من بلاغة القرآن وإعجازه وحسن إيجازه ومن ثم يكون اختيار تلك الصيغة هنا فى غاية الجودة لما تشتمل عليه من إيحاءات وظلال معنوية تغطى كافة المعانى المحتملة فى ذلك الموقف.

وعلى كل نقول: إن كان لا بد لنا من ترجيح أحد معانى تلك الصيغة هنا، فنحن نرجح إرادة المكان على المصدر وذلك لأن هذا الموقف فيما نرى يعبر عن جانب نفسى لدى نوح عليه السلام وهو تلك المشاعر التى يمكن أن تستولى عليه عند رسو السفينة فى ذلك المكان الجديد الموحش حيث أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وغدت الأرض بعدهم بلاقع لا حياة فيها ولا أنيس حتى من الوحش أو الطير، فلا شك أن يكون ذلك المكان الجديد مصدرًا للخوف والقلق يدعوا المرء أن يتوجه إلى ربه بطلب بركته على هذا المكان حتى يستطيع نوح ومن معه من المؤمنين أن يستأنفوا فيه حياة جديدة وهذا بلا شك موقوف على أن يأذن الله تعالى لتلك الأرض الجديدة أن تخرج خيرها، وأن يبارك فيها.

ومع هذه المحاولة منا لترجيح أحد معنيي الصيغة، فإن الصيغة تظل بعد ذلك محتملة كلا المعنيين أونقول إ ا تدل على أحد المعنيين بالأصالة وتفيد فى الوقت نفسه من ظلال المعنى الآخر مما يودى إلى إثراء المعنى.

وهذه الصيغة لها نظائر فى قول الله تعالى:

(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً) [٦٧] هى تحتمل كسابقتها كذلك أن تكون مصدرا أو اسم مكان[٦٨] والمصدر له وجه وهو أن يكون الإدخال نفسه كريما، ألا ترى كيف غاير الله تعالى فى التعبير عن إدخال كل من الفريقين إلى مستقره فى سورة الزمر فقال: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوا ا) ...، (وَسِيقَ الَذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ... [٦٩]فأتى بواو الحال مع أهل الجنة كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوا ا[٧٠] فهذا يدل على أن الحمل على المصدر فى قوله تعالى(مُّدْخَلاً كَرِيماً) ليس بعيدا، وكذلك الحمل على

المكان وهو الجنة وحسبك به مدخلا كريما. فالحمل على المعنيين فى مثل هذا الموضع من الإعجاز القرآنى بمكان كذلك لما فيه من تناغم المعانى واتساقها وتآزرها على توفية المقام حقه، وهو الترغيب فى اجتناب مناهيه وزواجره سبحانه وتعالى.

وأرى والله أعلى وأعلم أن هذه المواضع السابقة كلها يجوز فيها الحمل على المعنيين جميعا أو ترجيح الحمل على المكان مع إفادة الصيغة بظلال معنى المصدر.

وبينما يترجح هنا فى هذه المواضع السابقة معنى الحمل على المكان، فثمة موضع آخر يترجح فيها الحمل على المصدر، وذلك كما فى قوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً) [٧١]

قال ابن جرير" واختلف أهل التأويل فى معنى مدخل الصدق الذى أمر الله نبيهε أن يدخله إياه وفى مخرج الصدق الذى أمره أن يرغب إليه فى أن يخرجه اياه"[٧٢].

ثم حكى هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: وأشبه هذه الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال معنى ذلك وأدخلنى المدينة مدخل صدق وأخرجنى من مكة مخرج صدق وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية لأن ذلك عقيب قوله(وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً) وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك أهل مكة فإذا كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ε ليخرجوه عن مكة كان بيِّنا إذا كان الله قد أخرجه منها أن قوله:" وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق" أمر منه له بالرغبة إليه فى أن يخرجه من البلدة التى هم المشركون بإخراجه منها مخرج صدق وأن يدخله البلدة التى نقله الله إليها مدخل صدق [٧٣].

والراجح من أقوال المفسرين فى الآية هو ما رجحه الطبرى وهو ترجيح الجلالين[٧٤] وهو ما يدل عليه السياق كما بينه إمام المفسرين الطبرى (رحمه الله) والذى يرجح لدينا معنى الحمل على المصدرية فى الآية هو الوصف بالصدق، فحمله على المصدر أولى وأليق من حمله على المكان، لأن المعنى كما قال فى الجلالين :(أدخلنى) المدينة (مدخل صدق) إدخالا مرضيا لا أرى فيه ما أكره (وأخرجنى) من مكة (مخرج صدق) إخراجا لا ألتفت بقلبى إليها"[٧٥] ومن ثم جاء الوصف للإدخال والإخراج نفسه بالصدق لأنه منظور فيه إلى حال المدخل والمخرج وهو محمد ε ومدى انقياده لأمر الله تعالى واستسلامه له، وعدم تعلق قلبه بوطنه ومهده الأول، والتفاته عن ذلك كله هجرة صادقة إلى الله تعالى.

ومن ثم يترجح المصدر مع الإفادة بظلال وصف المكان الذى سيدخله النبى ε وهو المدينة بكونه مدخل صدق وحق، ويصدقه الله فيه ما وعده من النصر والفتح والظهور.

وقد يحتمل السياق – والله أعلم – جواز حمل (مخرج) على المكان أيضا مرادا به المكان الذى سيخرج إليه النبى ε كذلك ،ويكون ذلك من باب التوكيد المعنوى، وإن كان المعنى الأرجح الواضح وعليه كلام المفسرين هو الحمل على المصدر وهو واضح.

ومن أمثلة اختيار صيغة ذات معانٍ متعددة كذلك: قوله تعالى:(بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [٧٦]

حيث ذكروا فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن البصيرة اسم مصدر، وهو قول الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك"[٧٧].

والثانى: أنه وصف مبالغة، وهو قول أبى عبيدة" جاءت هذه الهاء فى صفة الذكر كما جاءت فى راوية وعلامة وطاغية"[٧٨].

الثالث: أن البصيرة هى" جوارحه تشهد عليه بما عمل"[٧٩].

وهذه الأقوال الثلاثة مما يحتملها سياق الآية، ولا مانع من حمل المعنى عليها جميعا، فالسياق لا يأباه بل يأتلف معها أتم الائتلاف؛ فالإنسان فى هذا اليوم بصير على نفسه أتم البصر فقد انكشف عنه غطاء الغفلة والشهوات حيث قال له (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ) [٨٠]حيث جاء البصر موصوفا بحديد على سبيل المبالغة، مما يشعر بقوة البصر والبصيرة فى هذا اليوم وله من جوارحه بصيرة تشهد له وعليه[٨١] وهو نفسه بصيرة أى حجة على نفسه، ومن ثم تتلاقى ظلال تلك المعانى جميعا لإثراء المعنى[٨٢].

ومن ذلك أيضا الاشتراك الواقع فى صيغة (فعيل) فى قوله تعالى: (وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (ق: ٤) صيغة فعيل هنا (حفيظ) هى إما بمعنى (حافظ) أو بمعنى (محفوظ) وهاتان الصفتان ليستا لشيئين مختلفين وليستا متنطقتين معا؛ بل يصح وصف الشىء الواحد بهما معا، فلا يمتنع أن يوصف الكتاب وهو اللوح المحفوظ بأنه" محفوظ من الشياطين ومن التغير، أو حافظ لما أودعه وكتب فيه"[٨٣]. كما قال الزمخشرى.

ويصعب الترجيح فى مثل هذا الموضع كذلك؛ وإن كانت قرينة السياق يمكن أن تعيننا فى ترجيح المعنى الثانى دون الأول.

قال تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ المجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ *بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ) [٨٤] فسياق الآيات يدل على أنهم يستبعدون إحصاء الله تعالى لذرات أجسادهم بعد أن تغيب فى الأرض، وذلك كما ذكر الله تعالى عنهم:(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) [٨٥] أى

أئذا عُبنا فيها بأن صرنا ترابا مختلطا بترا ـا"[٨٦] فكأن مثار الشك أو الجدل لذى هؤلاء الكافرين هو فى كون الكتاب حافظا لذرات أجسادهم؛ لا فى كونه محفوظا؛ ولكن آثرا التعبير القرآنى المعجز صيغة (فعيل) لكى يثبت كلا المعنيين: كونه حافظا، وكونه محفوظا؛ وذلك لأنه إذا كان المراد هو إثبات كونه حافظا؛ فإن مما يتم به المعنى أن يكون الكتاب محفوظا كذلك من التغيير والتبديل؛ إذ لا يتم الحفظ إلا بذلك.

ومن ثم نرى أن اختيار القرآن الكريم للصيغة ذات المعنى المتعدد على بدائلها ذات المعنى الواحد يعد من الأدلة الواضحة على الإعجاز البيانى لهذا الكتاب الخالد.

٣-اتساع الدلالة من خلال العدول الصيغي :

فمن ذلك العدول من مصدر لآخر :

قال تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) [٨٧]حيث عدل عن المصدر (تبتلا) إلى (تبتيلا) وقد جرى معظم المفسرين الذين تعرضوا لبيان سر العدول فى هذا الموضع على تعليله برعاية الفواصل[٨٨].

قال الزمخشرى (فإن قلت: كيف قيل(تبتيلا) مكان (تبتلا) ، قلت لأن معنى تبتل: بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل[٨٩].

فالزمخشرى – وتبعه فى ذلك الألوسى – جعل (تبتل) هنا بمعنى بتل، ولكن هذا يثير سؤالا آخر وهو لماذا عدلت الآية إذا عن بتل إلى (تبتل) ؟ والأقرب من هذا وهو الأصوب أن نقول: لماذا عدلت الآية عن (التبتل) إلى (التبتيل)؟ وهل السر فى هذا العدول هو مجرد رعاية الفاصلة؟

قال الألوسى:" (تبتيلا) ونصبه(تبتل) لتضمنه بتل على ما قيل"[٩٠] والسر فى هذا العدول عندى والله تعالى أعلم هو تضمين المصدر تبتيلا معنى(التبتل) أيضا، وذلك كما يضمن الفعل معنى فعل آخر عن طريق تعديته بغير الحرف الذى يعدى به، وذلك على نحو قوله تعالى (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ) [٩١]أى نجيناه من القوم، حيث أراد أن يبين سبحانه أن هذا النصر لم يكن بالغلبة وإنما كان بالتنجية من أذى قومه، فعداه بـ (من) وكان حقه أن يعدى بـ(على) وذلك ليضمنه معنى نجيناه أى ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم"[٩٢]

والتضمين فى الأفعال معروف ومشهور، وبنحوه التضمين فى المصادر كما فى هذا الموضع وكما فى قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً) (نوح:١٧)[٩٣]،

والمقصد أن نبين أن الله تعالى فى هذا الموضع قد ضمن الفعل (تبتل) معنى (بتل)، وضمن المصدر (تبتيلا) معنى (تبتلا)، وكأن المقصود من المخالفة بين الفعل ومصدره هى الإفادة بكلا المعنيين اللذين اشتمل عليهما كل من الفعل والمصدر.

فالفعل (تبتل) على صيغة (تفعل) ، و(تفعل) تأتى لمعان منها التكلف، كتصبر وتحلم: تكلف الصبر والحلم[٩٤] ومن ثم نرى أنه قد أتى بالتبتل وهو على وزن التفعل الدال على التكلف والمحاولة كما فى قول النبى ε إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم.. الخ فأتى بالتبتل فى الأمر ليتضمن معنى التكلف والتحمل، والتصبر على المشاق مخالف لمألوف النفوس، وذلك لأن النفس لم تتعود العزلة والانقطاع ففى هذا الأمر مشقة عليها تحتاج إلى تكلف ومجاهدة ومحاولة حتى تعتاده النفس ويسهل عليها.

وأتى فى المصدر" بتبتيلا" وهو على وزن" تفعيل" الدال على التكثير[٩٥] ليدل على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتل والانقطاع، وذلك لحاجة الداعى إليه فى أول الطريق حتى ينال نصيبه من زكاة النفس، ومجاهد ا، وجمعها على محبو ا وفاطرها استغناء به عمن سواه، وتوكلا عليه دون غيره. ا ذا يتضمن الأمر معنى المحاولة وا اهدة مع الإكثار من التبتل المطلوب للداعى ليكون زادا له فى دعوته للناس.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن من معانى(تفعل)" مطاوعة" فعل"مضعف العين، كنبهته فتنبه، وكسرته فتكسر"[٩٦] فإنه يزداد إدراكنا لذلك الإعجاز القرآنى فى ذلك العدول فى الصيغة فى هذا الموضع، حيث نقف على سر آخر للعدول، وهو أن السبب فى إيثار (تبتّل) على (بتّل) أن (تبتّل) مطاوع (بتّل) حيث يقال (بتله فتبتل) فحينما عدلت الآية عن مصدر تبتل إلى مصدر بتل فإ ا ضمنت الفعل تبتل معنى(بتل) وهذا يشعر أن هذا التبتل قد حدث بعد كثرة تبتيل للنفس، حيث قال الرازى:" الواجب أن يقال: (وتبتل إليه تبتلا) أو يقال: (بتِّل نفسك إليه تبتيلا) لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف ،والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إلى الله ، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى : { والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت : ٦٩] فذكر التبتل أولاً إشعاراً بأنه المقصود بالذات ، وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض[٩٧].

فحاصل كلام الرازى وحقيقته الانقطاع إلى الله تعالى عما سواه. ومن ثم فحاصل الوجه الأول الذى ذكرناه آنفا أن التبتل يأتى أولا لاشتماله على التكلف والمحاولة، وحاصل الوجه الذى وجهنا به كلام الرازى أن التبتيل يأتى أولا لتوقف حصول التبتل عليه والذى أراه والله تعالى أعلم أن يكون التفعل بذلك من الأضداد حيث يدل على ابتداء، الشيء ومنتهاه، فحيث ينظر فيه إلى معنى التكلف والمحاولة فهو الابتداء، وحيث ينظر فيه إلى مطاوعة (فعل) فهو الانتهاء فهو حينئذ نتيجة لحدث سابق (بتَّل نفسه فتبتلت) ومن ثم فلا تعارض

فالسالك إلى الله تعالى مأمور فى بادىء أمره بالتبتل بمعنى التكلف والمحاولة ولكى يصل إلى التبتل بمعنى النتيجة ومطاوعة النفس له على التبتل والانقطاع إلى الله.

ومن ثم يكون فائدة العدول هنا تضمين كل من الفعل والمصدر أحدهما معنى الآخر، ومن ثم يكون كلا الأمرين مطلوبين للسالك إلى الله فلا غنى له عن تكلف التبتل ومحاولته ليحمل نفسه عليه لثقله عليها أول أمره، ولا بد من إكثار التبتل ومحاولته حتى تعتاده النفس وتطاوع له.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: **(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً)** (النبأ: ٢٨) حيث عدل فيه عن المصدر تكذيبا لأجل الإيقاع، ولما يدل عليه من المبالغة فى التكذيب أكثر من المصدر الأصلى خاصة وأن أغلب ما يكون العدول يكون للمبالغة[١]. ويدل على رعاية الإيقاع كذلك تكرر ذلك المصدر بعينه فى نفس السورة فى قوله تعالى**(لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً)** (النبأ:٣٥) وكأن ذلك من حسن الجزاء للمتقين الداعين إلى الله حيث قوبلوا فى الدنيا بذلك الكذّاب، فعصمهم الله فى الآخرة أن يسمعوا فيها لغوا أو كذابا.

ومنه العدول إلى اسم المرة :

وذلك كما فى قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: **(قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ)** (الأعراف :٦٠-٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول فى الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة)

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد ا موا نوحا عليه السلام بالضلال ا اما مؤكدا بإن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له فى ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (فى) من معنى الإحاطة والانغماس فى الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل)على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح فى نفى هذا الا ام مسلكا آكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل القرآن عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعها نكرة فى سياق النفى لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفى أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بى شىء من الضلال)[١] أو (ليس بى نوع من الضلال ألبتة، فكان هذا أبلغ فى عموم السلب)[٢] وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفى الأدنى من نفى الأكثر[٣] (فيرجع حاصل المعنى ليس بى أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين)[٤]، ولذا قال الطيبى: (أى ضلالة نزرة)[٥] ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة فى سياق النفى فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

ومنه العدول إلى اسم الفاعل :

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: **(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ)** (البقرة:١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبىε فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبىε أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ε لمتابعة الكتاب ، وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى: **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** [٦] ولذا قال الألوسى:**(وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ)** أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشرى" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم[٧] هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء[١] وقد استشف صاحب الظلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبر عنها فى عبارة واحدة فقال" وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ص تجاه هذا الأمر[٢].

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ε لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ε لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: **(قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)** سورة الكافرون حيث جاء نفى العبادة عن نفسه لآلهتهم الباطلة أولا بصيغة المضارع أعبد، ثم عدل عنه فى خطابهم إلى صيغة الاسم وكان مقتضى السياق أن يقول**(لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)**، ثم عدل عن المضارع أيضا فى إخباره عن نفسه ثانية فى قوله **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** والسر فى هذا العدول فى أغلب الأقوال المذكورة هو شمول الزمان واستيعابه واختلف هل الأول للدلالة على الحال والثانى للاستقبال أو العكس أو كلاهما للحال والاستقبال)[٣] وقيل (الجملتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل، والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى)[٤] وقيل غير ذلك[٥]

وقال ابن تيمية (رحمه الله) الفعل المضارع هو فى اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضى، فيعم الحاضر والمستقبل.. فقوله: "لا أعبد" يتناول نفى عبادته لمعبودهم فى الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله" ما تعبدون" يتناول ما يعبدونه فى الحاضر والمستقبل وكلاهما مضارع. وقال فى الجملة الثانية عن نفسه**(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** فلم يقل" لا أعبد" بل قال ولا أنا

عابد" ولم يقل " ما تعبدون" بل قال " ماعبدتم" فاللفظ فى فعله وفعلهم مغاير للفظ فى الجملة الأولى.والنفى هذه الجملة الثانية أعم من النفى بالأولى، فإنه قال **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** بصيغة الماضى، فهو يتناول ما عبدوه فى الزمن الماضى، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى وليس معبودهم فى كل وقت هو المعبود فى الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى. فقوله:**(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** براءة من كل ما عبدوه فى الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولا مما عبدوه فى الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون فى كل زمان ماض، وحاضر، ومستقبل. وقوله أولا**(لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)**لا يتناول هذا كله[1] و هذا يكون فائدة العدول إلى اسم الفاعل فى هذا الموضع هو شمول جميع الأزمان، والتبرؤ من جميع معبودا م الباطلة التى عبدوها أو يعبدو ا فى يوم من الأيام. فقد رجح ابن تيمية شمول دلالة اسم الفاعل فى هذا الموضع للأزمنة الثلاثة – والمشتهر هو دلالة اسم الفاعل المنون على الاستقبال ولكن يجوز صرفه إلى غيره بدلالة القرائن، وقد دل لفظ (عبدتم) على صرفه إلى معنى المضى، فضلا عن أن الكسائى وإبن هشام جوزا إعماله ماضيا، كما أنه يجوز إعمال الفاعل مفسرا له بالماضى بأنه على حكاية الحال كقوله تعالى: **(وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ)** (الكهف:١٨) وقوله: **(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** [2] (البقرة:٧٢)

وقد فسر القرطبى كذلك **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** على نفى العبادة منه لما عبدوا فى الماضى[3]

وثمة فائدة أخرى لهذا العدول لم أجد من نبه عليها غير الإمام ابن تيمية وهى قوله: وقوله: **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ)** اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافا، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضا، لكنه جملة اسمية والنفى بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله. وقولك" ما هو بفاعل" هذا أبدا، أبلغ من قولك" ما يفعله أبدا" فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك" ما يفعل هذا" فإنه لا ينفى إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغى له بخلاف" ما هو فاعل، وما هو بفاعل" كما فى قوله تعالى**(فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)** (النحل: ٧١) وقوله: **(وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ)** (إبراهيم: ٢٢) وقوله"**(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** (البقرة:٧٤)**(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ)** (النمل: ٨١) **(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ)** (فاطر:٢٢) **(وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ)**"(البقرة: ١٠٢) ... فقوله**(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** (الكافرون:٤) أى نفسى لا تقبل ولا تصلح لها أن تعبد ما عبدتموه ولو كنتم عبدتموه قط فى الماضى فقط، فأى معبود عبدتموه فى وقت فأنا لا أقبل أن أعبده فى

وقت من الأوقاتففى هذا من عموم عباد ـم فى الماضى والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة فى جميع الأزمان ما ليس فى الجملة الأولى. تلك تضمنت نفى الفعل فى الزمان غير الماضى، وهذه تضمنت نفى إمكانه وقبوله لما كان معبودا لهم ولو فى بعض الزمان الماضى فقط، والتقدير: ما عبدتموه ولو فى بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكننى ولا يسوغ لى أن أعبده أبدا وهذا الذى ذكره الإمام فى هذا الموضع، قد نقله الإمام الألوسى وذكر ما أورد عليه ورده موجها لقول الإمام ابن تيمية فقال نقل أيضا عن شيخ الإسلام أن المراد بقوله سبحانه(**لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**)نفى الفعل لأ ـا جملة فعلية، بقوله تعالى **(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)** نفى قبوله ص لذلك بالكلية لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه عليه الصلاة والسلام قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى إمكانه الشرعى ونوقش فى إفادة الجملة الاسمية نفى القبول ولا يبعد أن يقال إن معنى الجملة الفعلية نفى الفعل فى زمان معين والجملة الاسمية معناها نفى الدخول تحت هذا المفهوم مطلقا من غير تعرض للزمان كأنه قيل أنا ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم فتدبر[1].

وقد رجح ابن كثير فى تفسيره كلام ابن تيمية السابق، واعتمده تلميذه ابن القيم فى تفسيره لسورة الكافرون واكتفى بحكايته عن غيره[2] وأرى أنه يمكن توجيه كلام ابن تيمية باعتبار دلالة اسم الفاعل على النسب قال ابن مالك: ومع فاعل وفعال فعل فى نسب أغنى من الياء قبل ومن ثم يكون المعنى بناء على ذلك (ولا أنا بمنتسب إلى عبادتكم أبدا ولا أصلح لها ولا يمكن أن تكون من مثلى أو أنسب إليها).

ومثل هذا المعنى يصح أن يحمل عليه العدول على اسم الفاعل فى قوله تعالى:(**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)** أيضا.

قال الإمام ابن تيمية:" كل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافرا، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع، فهو ما دام كافرا لا يعبد معبود محمد ع لا فى الحاضر ولا فى المستقبل. ولم يقل عنهم" ولا تعبدون ما أعبد" بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أنه نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، ولا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة. إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد، ومن كان كافرا بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط. وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضى براءة ذاو ـم من عبادة الله، لم تقتصر على نفى الفعل"[3].

ومن ثم فإن دلالة التعبير باسم الفاعل فى هذا الموضع شبيهة بدلالته فى الموضع السابق؛ إذ إن المعنى والله أعلم هو نفى صحة انتسا ـم إلى عبادة الله تعالى ما داموا ملابسين لما هم عليه من الشرك والكفر.

ومما جاء من استعمال اسم الفاعل أيضا بتلك الدلالة التى نبه عليها الإمام ابن تيمية سابقا غير ما ذكر من الآيات التى استشهد ـا، قوله تعالى عن أخوة يوسف حينما وجهت إليهم ـمة سرقة صواع الملك **(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)** (يوسف:٧٣) حيث آثر صيغة اسم الفاعل على صيغة الفعل نحو (وما كنا لنسرق) لالة على عدم انتسا ـم إلى هذه الصفة، وعدم صلاحيتهم للاتصاف ـا. فكأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يتأتى منهم ألبتة، ولا يليق اتصافهم به وهم من بيت النبوة. ولذا قال الزمخشرى فى معناها (وما كنا قط نوصف بالسرقة وهى منافية لحالنا) وقال الألوسى فى تفسيره (أى ما كنا نوصف بالسرقة قط)[٢].

ثالثا : اتساع الدلالة النحوية :

تتعدد الدلالات النحوية للكلمة بتعدد التوجيه الإعرابي لموقعها النحوي ، وقد يحتمل السياق تلك الدلالات جميعها ،أو يرجح واحدة منها على باقيها ، وسوف أتناول هنا بشيء من التفصيل بعض الظواهر النحوية التي تؤدي إلى اتساع المعنى أو تعدده مع دراسة أثر السياق في تحديد أحد هذه المعاني ،أو اتساعه لها جميعا ، فمن هذه الظواهر:

١- اتساع الدلالة من خلال التضمين النحوي .
٢- اتساع الدلالة من خلال الحذف .
٣- اتساع الدلالة من خلال العدول .
٤- اتساع الدلالة من خلال تعدد التوجيه الإعرابي للكلمة .
٥- تعدد المعنى بسبب الاحتمال في الإحالة :

١- اتساع الدلالة من خلال التضمين النحوي :

حول مصطلح التضمين [٩٨]:

التضمين لغةً :

يقال :ضمَّن الشيءَ الشيءَ : أودعه إياه. وكلَّ شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته إياه .[٩٩]

التضمين النحوي [١٠٠]:

وصف ابن جني ظاهرة التضمين بقوله :" باب من هذه اللغة واسع لطيف طريف، وهو اتصال الفعل بحرف ليس مما يتعدى به؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به. من ذلك قوله تعالى: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ }[١٠١] لما كان في معنى الإفضاء عداه بإلى "[١٠٢]

ويبينه ابن هشام بقوله :" قد يشربون لفظا معنى لفظ ، فيعطونه حكمه ، ويسمَّى ذلك تضمينا "[١٠٣]

ونرى أن تعريف ابن هشام أوسع من تعريف ابن جنّي حيث إنه لا يقتصر على الأفعال وحدها بل يتسع لغيرها كذلك من أنواع الكلم .

التضمين البياني :

التضمين البياني ذكره ابن كمال باشا فقال: "التضمين أن يقصد بلفظ معناه الحقيقي ، ومعنى لفظ آخر يناسبه ، ويُدَلُّ عليه بذكر شيء من متعلقات الآخر ، كقولك أحمد إليك فلانا ، فإنك لاحظت فيه معنى الحمد مع معنى الانتهاء ، ودللت عليه بذكر صلته ،أعني كلمة(إلى)" .[١٠٤]

وعرفه العزُّ بن عبد السلام بأنه "تضمين اسم معنى اسم ، لإفادة معناه ، فتعديه تعديته في بعض المواضع ، كقوله تعالى : (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ) [١٠٥]، فتضمن حقيق معنى فعل آخر فتعديه أيضا تعديته في بعض المواضع"[١٠٦]

وقد تعددت الدراسات لهذه الظاهرة في القديم والحديث ، وإن كانت قد انحصرت في معظمها في دائرة الدراسة النحوية حيث اقتصرت معظم هذه البحوث على محاولة تحديد موقع التضمين ،وهل هو الفعل أو الحرف ؟

ففي مثل قوله تعالى {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [١٠٧] يذهب البعض إلى وقوع التضمين في الفعل ، فيرى أنه قد ضمن معنى التنجية ،بينما يرى فريق آخر أن التضمين إنما وقع في الحرف لا الفعل ، فيرى أن الحرف (من) قد ضمن معنى (على) .[١٠٨]

أما المذهب الثاني فهو الذي يُطْلق على هذه الظاهرة مصطلح " التضمين " [١٠٩]

ويرى أن الفعل قد تضمّن معنى فعل آخر ، وحرف الجر مَسُوق لإتمام معنى هذا الفعل .فالتضمين عندهم : إيقاع لفظٍ موقع غيره ومعاملته معاملته ، لتضمنه معناه ، واشتماله عليه ، أو هو إشراب فعلٍ أو مشتقٍ أو مصدرٍ معنى فعل آخر أو مشتق أو مصدر ، ليجري مجراه في التعدي والمعنى ، مع إرادة معنى المتضمِّن . والغرض منه إعطاء مجموع المعنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد .

ويجري على التضمين هذه الدلالة كثير من أفعال القرآن الكريم . ومن ذلك قوله تعالى :{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ } [١١٠] يقول الدكتور : محمد نديم فاضل فتضمين الرفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذا ما معنى الإفضاء ، والمتعدى بـ " إلى " ، يمنح العلاقة بين الزوجين لمسة إنسانية تترفع ما عن عالم الحيوان ، لمسة حانية ، فيها من الرفق والنداوة والشفافية مثلما فيها من سمو المشاعر ، وتحسر (إلى) هذه عن مسافر وجهها

الجميل لتحكي ما اشتملت عليه المشاعر حين جمعت الرفث إلى الإفضاء فيما أحل الله للزوجين في شهر الصيام لتنأى ما عن عرام الجسد ، والحبس في الرغبات المكبوتة في اللحم والدم بعد أن تستتبع خلفها معنى الستر يتدثر به كل من الزوجين ، وتتصل بأفق أرفع من الأرض وبغاية أسمى من اللذة ، ترقّ وترْقى إلى معارج عليا .... وحَسبُ التضمين أنه جعل في لفظ الرفث نداوة يخضر ّ ا ، ويرمي ظلاله ، ولمسة رفافة تنأى عن عرام الجسد تبتغي الإعفاف والإنجاب ، وتوقظ معنى الستر في هذا الحرف " إلى " ، فجمع من صنوف البيان ما ذاع صيته على كل لسان"(١١١)

فمقتضى التضمين هنا أن الآية ضمت إلى معنى الرفث معنى الإفضاء ولم تلغ دلالة الرفث ، وإلا فلماذا ذكر لفظ الرفث أصلا إن كانت دلالته هدرا ؟!

ولماذا لم يستبدل بالإفضاء إن كان هو المقصود وحده ؟!

ولكن الحق أن المزية التي يرجع إليها التضمين هي كما قال الزمخشري وورد نحوه عن ابن هشام وأبي البقاء الكفوي آنفا :

"فإن قلت :أي غرض في هذا التضمين؟ ... قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ،وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ"(١١٢)

وانتصر كثيرون لنظرية التضمين في الأفعال لا الحروف ، ومنهم ابن العربي الإشبيلي ، يقول : " وكذلك عادة العرب أن تحمل معاني الأفعال على الأفعال لما بينهما من الارتباط والاتصال ، وجهلت النحوية هذا ، فقال كثير منهم : إن حروف الجر يبدل بعضها من بعض، ويحمل بعضها معاني البعض ، فخفي عليهم وضْعُ فعلٍ مكان فعل وهو أوسع وأقيس ، ولجؤوا بجهلهم إلى الحروف التي يضيق فيها نطاق الكلام والاحتمال"(١١٣)

وممن قال بالتضمين في الأفعال ابن هشام ، مع أنه خرَّج كثيراً من الشواهد على طريقة تضمين الحروف ، يقول : " قد يشربون لفظاً معنى لفظٍ فيعطونه حكمه ، ويسمى ذلك تضميناً ، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين نحو قوله تعالى:{ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} ١١٤ ضُمِّن معنى يُحرموه :(١١٥)

وكذلك الحافظ السيوطي إذ يقول : " إيقاع لفظ موقع غيره لتضمن معناه"(١١٦)

النماذج التطبيقية للتضمين :

وقفنا آنفا أمبعض الأمثلة القرآنية التي استشهدنا ا أو التي استشهد ا اللغويون أو المفسرون في حديثهم عن ظاهرة التضمين.(١١٧)

ومن الأمثلة غير ما ذكرنا :

التضمين في الأفعال :

قوله تعالى : (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النور :٦٣)

قال الشوكاني :"عديّ فعل المخالفة بـ(عن) مع كونه متعدّياً بنفسه لتضمينه معنى الإعراض ، أو الصدّ " [١١٨] وبيَّن البيضاوي سبب التعدية بـ"{ عَنْ } لتضمنه معنى الإعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه ، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى ، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر "[١١٩] فالفعل (يخالفون) يتعدى بنفسه وبـ إلى ، وحين عدي بـ(عن) تضمن معنى (يحيدون) أو (يصدُّون) أو (يعرضون) . والتعبير بلفظ (يتسللون) يصور ما هم فيه من الجبن عن المواجهة ، وتعمد المخالفة والتكلف لها . والفعل (خالف) تضمن معنى (حاد) ليبين ترتب العقوبة على مجرد الحيد عن أمر الله ورسوله ، وإن لم يمثل مخالفة صريحة ، فمجرد الحيدان عن أمر الله ورسوله يستوجب العذاب الأليم ، والتحذير الشديد من الله أن تصيبهم فتنة في الدين أو الدنيا ، التحذير لا لمن خالف وإنما لمن حاد عنها ، والحيدان أدنى درجات المخالفة عن المنهج الرباني .

ولكن لا بد هنا من الوقوف للتعليل كذلك عن سر العدول عن الفعل (يحيدون) إلى الفعل (يخالفون) ؟

لم جاء التعبير بالمخالفة إذا ؟

إن الناظر للسياقات اللغوية التي يستخدم فيها التعبير بالفعل (حاد) نلمح من خلالها أن الحيدان هو الانحراف أو الانزياح عن الجادة سواء كان ذلك بقصد أم بغير قصد فقد يقع سهوا أوعن غفلة بغير عمد ، وأما المخالفة فإ ـا تصدر عن تصميم وقصد وعدم مبالاةٍ بالأوامر شأن المنافقين الذين يتعمدون المخالفة ويتكلفون لها فيتسللون ويذهبون بغير إذن النبي . صلى الله عليه وسلم . متعدين بذلك على الحقوق والآداب الواجبة لقائد الجماعة المسلمة وإمامها الذي ينبغي الحفاظ على مقامه وهيبته .

ومن ثم يظهر السر في اختيار هذا الفعل (يخالفون) لما فيه من اتساع يشمل الحيد عن سنة النبي ρ مع تعمد مخالفته ، ويزداد المعنى اتساعا حينما يوصل هذا الفعل بالحرف (عن) ليضمن معنى الحيد الذي يصدق على أدنى انحراف عن السبيل لتتسع دائرة الوعيد على المخالفة لتشمل أدنى انحراف عن هديه وسنته ρ .

وكذلك قوله تعالى :(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الفتح:٢٤) الأصل أن يقال : (ظفر به) وليس (ظفر عليه) لكن تعدية الفعل أظفر بحرف (على) جاء هنا للدلالة على حصول الاستعلاء

بالنصر والتمكن من رقا ـم، فجمع بين معنى النصر والظفر طلبا للاتساع بالمعنى بطريق التضمين في الفعل .

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أنه "عُدي { أظفركم } بـ(على) لتضمينه معنى أيَّدَكُم وإلا فحقه أن يعدى بالباء ".[١٢٠]

التضمين في الأسماء:

كما يكون التضمين في الأفعال يكون في الأسماء أيضا نحو قوله تعالى:

"فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران :٥٢)فقد ضمن النصرة معنى الولاء أو التوجه أو القصد . [١٢١] قال الحافظ ابن كثير: "{ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } قال مجاهد : أي من يَتبعني إلى الله؟ وقال سفيان الثوري وغيره: من أنصاري مع الله؟ وقول مجاهد أقربُ. [١٢٢] وقال الألوسي:"{مَنْ أنصارى إِلَى الله } أي من جندي متوجهاً إلى نصرة الله تعالى ليطابق قوله سبحانه : { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْن أَنْصَارُ الله } " [١٢٣] وعليه فالتقدير إذا تضمين النصرة معنى التوجه والقصد والتبعية ونحو ذلك مما يحتمله السياق ،فيجتمع بذلك معنييان :

الأول : أن يكونوا أنصارا لنبيهم إلى الله.

الثاني أن يكونوا تابعين لنبيهم في نصر ـم لله .

أو يكونوا متوجهين إلى الله قاصدين إليه ، وهذا يقتضي صدق الإخلاص واللجوء إلى الله تعالى.

وقال صاحب الجنى الداني:"وكون إلى بمعنى مع حكاه ابن عصفور، عن الكوفيين. وحكاه ابن هشام عنهم، وعن كثير من البصريين. وتأويل بعضهم ما ورد، من ذلك، على تضمين العامل، وإبقاء إلى على أصلها والمعنى في قوله تعالى " من أنصاري إلى الله " : من يضيف نصرته إلى نصرة الله. وإلى في هذا أبلغ من مع، لأنك لو قلت: من ينصرني مع فلان، لم يدل على أن فلاناً وحده ينصرك، ولا بد، بخلاف إلى، فإن نصرة ما دخلت عليه محققة واقعة، مجزوم ـا. إذ المعنى على التضمين: من يضيف نصرته إلى نصرة فلان." [١٢٤]

ومن ذلك قوله تعالى : { لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ }

قال ابن تيمية :

"الْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ : { لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } أَيْ مَعَ نِعَاجِهِ و { مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } أَيْ مَعَ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنْ التَّضْمِينِ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَى نِعَاجِهِ"[١٢٥] فذهب إلى تضمين السؤال

معنى الضم والجمع ، فالمقصود أنه سأله ضم نعجته إلى نعاجه ، فأفاد التضمين جمع معنى الاسمين معا .

ومنه . أي التضمين في الأسماء . صيغ المبالغة :

وذلك كما في قوله تعالى شأنه : { سماعون للكذب سماعون لِقَوْمٍ ءاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ }[١٢٦]

ومنه . أي التضمين في الأسماء . التضمين في المصادر :

فمن ذلك قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً) (نوح: ١٧) حيث عدلت الآية عن المصدر (إنباتا) إلى (نباتا)، وقد علل أغلب المفسرين للاختيار فى (أنبتكم) أنه ضمنه معنى الإنشاء[١٢٧] وكان الأولى أن يبينوا سر العدول فى اسم المصدر (نباتا)لا أ م اكتفوا بتوجيهه بقولهم (والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتا)[١٢٨].

أما الرازى فقد كان أطول عنقا فى رمق سر هذا العدول حيث قال: كان ينبغى أن يقال أنبتكم إنباتا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتا، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتا. وفيه دقيقة لطيفة وهى أنه لو قال أنبتكم إنباتا كان المعنى أنبتكم إنباتاً غريبا، ولما قال أنبتكم نباتا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا. وهذا الثانى أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة غير الله محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى.. وأما لما قال "أنبتكم من الأرض نباتا" على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام. فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا ا ـاز كان لهذا السر اللطيف[١٢٩] فالإنبات إنما ينظر فيه إلى صنع الله عز وجل وهو خفى، فعدلت الآية عنه إلى ما هو ظاهر وهو النبات حيث تتجلى فيه مظاهر الإبداع والقدرة، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعه، والامتنان على عباده بنعمه، وسياق الآيات يساعد ذلك المعنى أتم المساعدة.

والشاهد هنا أن هذا المعنى البديع لم يتوصل إليه إلا بطريق التضمين فاجتمع معنى المصدرين :(الإنبات) الذي هو صنع الله تعالى وصفته الخفية و (النبات) الذي هو أثر صفته سبحانه ، ومظهر قدرته .

و من ذلك أيضا قوله تعالى(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) (المزمل: ٨) حيث عدل عن المصدر (تبتلا) إلى (تبتيلا) ليضمن (التفعيل) معنى (التفعل)وقد سبق بيانه في العدول الصيغي.

وبينا أن فائدة العدول هنا تضمين كل من الفعل والمصدر أحدهما معنى الآخر، ومن ثم يكون كلا الأمرين مطلوبا للسالك إلى الله فلا غنى له عن تكلف التبتل ومحاولته ليحمل نفسه عليه

لثقله عليها أول أمره،وهو المستفاد من (التفعل) في (تبتل) ولا بد من إكثار التبتل ومحاولته حتى تعتاده النفس وتطاوع له ، وهو المستفاد من التفعيل في (تبتيلا).

ففي هذه الأمثلة كلها يظهر أثر التضمين في تحقيق اتساع المعنى وتعدد ظلاله بما يخدم سياق الكلام ، ويحقق في الوقت نفسه نوعا من الإيجاز ؛ وذلك للتعبير عن أكثر من معنى بلفظ واحد .

٢- اتساع الدلالة من خلال الحذف :

الحذف يؤدي إلى إطلاق المعنى واتساعه وهو قسمان: قسم لا يؤدي إلى توسع في المعنى ولا إلى إطلاق لأن المحذوف يتعين فيتقدّر ذلك المحذوف :كما في قوله تعالى :ط **قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** "[١٣٠]أي (الله أنزل الكتاب ...الخ) فحذف : (أنزل ...) وهو متعين .

وكذلك قوله تعالى :(**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)**[١٣١] أي (الله يرزقنا)، وهو متعين كذلك .

وقوله تعالى :(**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ**) [١٣٢]

فهذا الحذف في هذه الأمثلة كلّها ليس فيه توسع ولا إطلاق في المعنى لأن المحذوف محدد ومعيّن.

وهناك قسم آخر من الحذف يؤول إلى التوسع في المعنى ومن ثم يحتمل عدة تقديرات ، قد يكون بعضها مرادا وقد تكون كلها مرادة بقدر ما يتبين من السياق.

فمنه على سبيل المثال حذف متعلق الجار كما في البسملة ، قال الزمخشري في الكشاف:"فإن قلت : بم تعلقت الباء؟ قلت : بمحذوف تقديره : بسم الله اقرأ أو أتلو؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء ، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى : بسم الله أحل وبسم الله أرتحل؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله؛ ب «بسم الله» كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له . ونظيره في حذف متعلق الجارّ قوله عزّ وجلّ : { في تسع آيات إلى فرعون وقومه }[١٣٣]، أي اذهب في تسع آيات . وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس : بالرفاء والبنين ، وقول الأعرابي : باليمن والبركة ، بمعنى أعرست ، أو نكحت . ومنه قوله :

فقُلْتُ إلى الطَّعام فقَالَ مِنْهُم ... فَرِيقٌ نَحْسُدُ الإِنْسَ الطَّعَامَا "[١٣٤]

فحذف متعلق الجار هنا في البسملة أدى إلى العموم والتوسعة ؛ فلم يقيد الإتيان بالبسملة بوقت دون وقت ،أوحال دون حال ؛ فهي مطلوبة ونافعة في كل حين ؛ومن ثم روي عنه ρ أنه قال : " **كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ب(بسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر** "[١٣٥]

ومنه قوله تعالى: " وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ" [136]

قال الزمخشري :"{ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ } لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب . أو لو أ م كانوا مهتدين مؤمنين ، لما رأوه . أو تمنوا لو كانوا مهتدين . أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقا "[١٣٧] .

وقد أطال الطاهر بن عاشور النفس في هذا الموضع في بيان عدد من المحذوفات في هذا الموضع ، وبين وجوه هذا الحذف ، وأثره في المعنى فقال :"وأما قوله تعالى { ورأوا العذاب لو أ م كانوا يهتدون } فيحتمل معاني كثيرة فرضها المفسرون : وجماع أقوالهم فيها أخذاً ورداً أن نجمعها في أربعة وجوه :

أحدها : أن يكون عطفاً على جملة { فلم يستجيبوا لهم } . والرؤية بصرية ، والعذاب عذاب الآخرة ، أي أحضر لهم آلة العذاب ليعلموا أن شركاءهم لا يغنون عنهم شيئاً . وعلى هذا تكون جملة {لو أ م كانوا يهتدون } مستأنفة ابتدائية مستقلة عن جملة { ورأوا العذاب } .

الثاني : أن تكون الواو للحال والرؤية أيضاً بصرية والعذاب عذاب الآخرة ، أي وقد رأوا العذاب فارتبكوا في الاهتداء إلى سبيل الخلاص فقيل لهم : ادعوا شركاءكم لخلاصكم ، وتكون جملة {لو أ م كانوا يهتدون } كذلك مستأنفة ابتدائية .

الثالث : أن تكون الرؤية علمية ، وحذف المفعول الثاني اختصاراً ، والعذاب عذاب الآخرة . والمعنى :وعلموا العذاب حائقاً م ، والواو للعطف أو الحال . وجملة {لو أ م كانوا يهتدون } مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل :ماذا صنعوا حين تحققوا أ م معذبون؟ جيفأب بأ م لو أ م كانوا يهتدون سبيلاً لسلكوه ولكنهم لا سبيل لهم إلى النجاة .

وعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون { لو }حرف شرط وجوا ا محذوفاً دل عليه حذف مفعول { يهتدون } أي يهتدون خلاصاً أو سبيلاً . والتقدير : لتخلصوا منه . وعلى الوجوه الثلاثة ففعل { كانوا } مزيد في الكلام لتوكيد خبر (أنّ)أي لو أ م يهتدون اهتداء متمكناً من نفوسهم ، وفي ذلك إيماء أ م حينئذ لا قرارة لنفوسهم . وصيغة المضارع في { يهتدون } دالة على التجدد فالاهتداء منقطع عنهم وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله .

الوجه الرابع : أن تكون { لو } للتمني المستعمل في التحسر عليهم . والمراد اهتداؤهم في حيا ـم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب ، وفعل { كانوا } حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي ، وصيغة المضارع في { يهتدون } لقصد تجدد الهدى المتحسر على فواته عنهم فإن الهدى لا ينفع صاحبه إلا إذا استمر إلى آخر حياته .

ووجه خامس عندي : أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا ، والكلام على حذف مضاف تقديره : ورأوا آثار العذاب والرؤية بصرية ، أي وهم رأوا العذاب في حيا ـم أي رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذبوا الرسل وهذا في معنى قوله تعالى في سورة إبراهيم (٤٥) { وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا ـم } ؛ وجملة {لو أ ـم كانوا يهتدون } شرط جوابه محذوف دل عليه {لو أ ـم كانوا يهتدون } أي بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أن وراءه عذاباً أعظم منه لاهتدوا فأقلعوا عن الشرك وصدقوا النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لأنه يفيد معنى زائداً على ما أفادته جملة { فلم يستجيبوا لهم } . فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية ، وكلها مقصودة ، فالآية من جوامع الكلم ."[١٣٨]

ففي الآية عدّة محذوفات هي :

١- حذف جواب (لو)

٢- حذف مفعول (يهتدون)

٣- حذف المضاف – على وجه : ورأوا آثار العذاب في الدنيا .

٤- حذف المفعول الثاني اختصاراً – على وجه :أن تكون الرؤية علمية ، والعذاب عذاب الآخرة . والمعنى وعلموا العذاب حائقا ً ـم .

٥- حذف سؤال سائل مقدرماذا صنعوا حين تحققوا أ ـم معذبون؟ ؛ وذلك باعتبار جملة {لو أ ـم كانوا يهتدون } مفقأاستئنافا بيانًيا ؛ فَأجيب بأ ـم لو أ ـم كانوا يهتدون سبيلاً لسلكوه ولكن لا سبيل لهم إلى النجاة .

ومن ثم نرى كيف تعددت وجوه المعاني في هذه الآية الكريمة بتعدد المحذوفات مما أدى إلى اتساع المعنى وتعدد ظلاله مما يحتمله السياق ولا يأباه في هذا الموضع ؛ ولذا عقب الطاهر بن عاشور على هذه الوجوه جميعا بقوله :" فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية ، وكلها مقصودة ، فالآية من جوامع الكلم ."[١٣٩]

وكذلك قوله تعالى (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً). [١٤٠]

الفعل (رغب) يعد من أفعال الأضداد باعتبار الحرف الذي يعدَّى به وذلك أنه إما أن يقال رغب فيه بمعنى أحبّه أو رغب عنه بمعنى تركه وانصرف عنه ، هذا في اللغة أما في هذا الآية فالله تعالى أراد المعنيين معاً أراد معنى : ترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن وغناهن وترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن وفقرهن ، وهكذا حذف الحرف ليدل على المعنيين ولو ذكر حرفاً لخصص المعنى وحدده، لكن المعنيين مرادان والحكم يتعلق بالأمرين معاً الذي يرغب في أن ينكحهن والذي يرغب عن أن ينكحهن.

٣- اتساع المعنى بسبب العدول النحوي :

كان للعدول عن المطرد أثره كذلك في تعدد أوجه المعنى واتساعه تبعا لتعدد أوجه الإعراب.

فمثال ما جاء خارجاً على المطّرد في القرآن الكريم - واقتضى تعدّداً في وجوه الإعراب ؛ ومن ثم تعددا في المعنى - قوله تعالى [وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه] [١٤١].

وقع في الآية الكريمة الاسم المنصوب "نفسه" موقع التمييز، وهو معرّف بالإضافة، وهذا مخالف لقاعدة مطردة من قواعد التمييز، وهي أن يكون نكرة، وبذلك تعدّدت الأوجه فذهب بعض الكوفيين إلى أنه تمييز وجاء معرّفاً شذوذاً[١٤٢]. وذهب بعضهم الآخر إلى أنه مشبه بالمفعول به أو مفعول به على أنّ " سفه " يتعدّى بنفسه مثل " سفّه"[١٤٣]. وعن أبي عبيدة (ت٢١٠هـ) أنّ الفعل ضمن معنى " أهلك " و " نفسه " مفعول به [١٤٤]. وعن الزّجّاج (ت٣١١هـ) أن الفعل ضمِّن معنى " جهل " وعن مكّي (ت٤٣٧هـ) أنّ "نفسه" توكيد لمؤكّدٍ محذوف، والتأويل: سفه قولَه نفسَه[١٤٥]. وعن بعض البصريّين أن الاسم انتصب على إسقاط الجارّ، أي سفه في نفسه [١٤٦]. فالخروج على القاعدة المطّردة الذي جاء في هذه الآية الكريمة هو الذي أدّى إلى التعدّد المذكور.

وقد يأتي العدول عن المطرد لغاية بلاغية،فيقود هذا الأمر إلى تعدد في التحليل. قال تعالى: [وَجَاؤُوا عَلىَ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً] [١٤٧]

وقع في الآية الكريمة المصدر " كذب " صفة لاسم الذات " دم "، والقاعدة المطردة لاسم الذات ألاَّ يوصف باسم معنىً، غير أن الغاية البلاغية اتسعت هنا لقاعدة التوارد بين الألفاظ، وهو خروج على الأصل ، فأدى ذلك إلى تعدد في التحليل ، وهو أن يكون الوصف بالمصدر على سبيل المبالغة، أو أن يقدَّر مضاف محذوف، أي ذي كذب، ثم حُذف المضاف وقام المضاف إليه مقامه[١٤٨]

هذا النمط المطّرد الذي يخرج على الأصل قد يشيع كثيراً في الاستخدام، ويظهر في صور مختلفة[١٤٩]

٤- اتساع المعنى بسبب تعدد التوجيه الإعرابي للكلمة :

وذلك يكون لأسباب منها :

غياب الحركة الإعرابية :

فقد يحتمل الموقع النحوي أكثر من وجه،وتكون العلامة الإعرابية هي الحاسمة، في تحديد الوجه المراد ، وعندما تكون العلامة مقدرة – غير ظاهرة لأسباب تقتضيها طبيعة اللغة – تتعدد الأوجه. ومثال ذلك قوله تعالى: [سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى] [١٥٠]. يحتمل الموقع الذي يشغله " الأعلى " وجهين، لتعذر ظهور الحركة على الاسم، فيجوز فيه أن يكون في موضع نصبٍ، صفة لـ " اسم " الذي عُرِّف بالإضافة، ويجوز فيه أيضاً أن يكون في موضع جر صفة لـ " رب " الذي عرف بالإضافة [١٥١]. وقوله تعالى: [وَهَـذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزلْنَاهُ][١٥٢]. يحتمل موقع "أنزلناه" وجهين لعدم ظهور الحركة على الجملة، فيجوز أن تكون الجملة في موضع رفع، صفة ثانية لـ " ذكر "، ويجوز أن تكون في موضع نصب، حالاً من "ذكر"، لأنه خصّص بالوصف."[153]

وكما في احتمال (من) معنى الفاعلية أو المفعولية في قوله تعالى :" **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**"[١٥٤]والسياق يحتمل المعنيين .

وكما في قوله تعالى :" **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**" [١٥٥]

فإن الكبرى تحتمل النصب على المفعولية ،أي رأى الآية الكبرى ، أو الجر على النعت للآيات .

ولا مانع من الجمع بينهما فلقد رأى العديد من الآيات العظيمة في معراجه ،كما رأى الآية الأعظم في لقائه لربه ورؤيته إياه أو رؤية نور جلاله على الاختلاف الوارد في ذلك .

"قال جماعة من أهل التأويل معناه : رأى الكبرى من آيات ربه ، والمعنى { من آيات ربه } التي يمكن أن يراها البشر ، ف { الكبرى } على هذا مفعول ب { رأى } . وقال آخرون المعنى : { لقد رأى } بعضاً { من آيات ربه الكبرى } ، ف { الكبرى } على هذا وصف للآيات"[١٥٦]

وهكذا تتعدد وجوه المعنى وتتسع بتعدد وجوه الإعراب .

٥–تعدد المعنى بسبب الاحتمال في الإحالة :

نستطيع أن نتأمل ذلك في قوله تعالى: **{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}**[ق:٢-٣].

عجبهم إنما كان من كون الرسول ρ بشرًا مثلهم{منذر منهم}، ومن كونه ينذرهم بالبعث والنشور(١٥٧).

ويظهر جمال القرآن وإعجازه هنا في توسط هذه الجملة **{فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}** في موضع تصلح أن تكون إحالة الإشارة (هذا) إلى ما قبلها أو إلى ما بعدها ،أي تكون الإشارة إلى ما قبلها وهو قوله(منذر منهم) فيكون التعجب من بشرية المنذر ، أو من مجيء منذر ، ومن كونه بشرا ، فيمكن أن تعود الإحالة الأولى إلى أمرين تعجب منهما الكفار .

ويمكن أن تكون الإحالة في (هذا) إلى ما بعدها وهو قوله**{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}**. وهو البعث .

ويمكن الجمع بين هذه المعاني كلها ؛ فيقال إ م تعجبوا من مجيء منذر ، ومن كون هذا المنذر بشرا منهم ، ومن كونه ينذرهم بالبعث والحساب والعذاب بعد الموت .

وفي هذا جمع بين المعاني الممكنة مما لا يأباه السياق بل يقتضيه أشد الاقتضاء .

– ومن صور تعدد المعنى واتساعه للاحتمال في الإحالة كذلك :ما في قوله تعالى :" **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** "[١٥٨]

حيث يحتمل الضمير المستتر في (يشاء) الإحالة إلى لفظ الجلالة أو إلى (من)؛ والجمع بين الإحالتين يفيد أن الله تعالى يضل من أراد الضلالة واختاره على الهدى ، وأن ذلك يكون بمشيئة الله تعالى وقدره في الوقت نفسه إذ لا يكون في الكون إلا ما شاء الله وقدره وقضاه .

رابعا : اتساع الدلالة البيانية التصويرية [١٥٩]

فالذي يتأمل على سبيل المثال قوله تعالى:

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "(البقرة :٢٦١)

يرى كيف تكون براعة التعبير القرآنية في العمل على اتساع الصورة لتحلق النفس في آفاقها البعيدة منبهرة بذلك التصوير الرائع من تلك الصور التوليدية الرائعة التي تبدأ بحبة واحدة ثم تتعدد لسبعمائة حبة ؛ بل إلى أضعاف كثيرة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه .

وكذلك قوله تعالى :" **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)**"[١٦٠]

إذا تأملناه رأينا رحابة الصورة في أفق الصحراء مع الانسياق اللا ـائي مع ذلك السراب ، كما نلاحظ كثافة الصورة وعمقها في "**ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** " لنرى تراكمات تلك الصور المتناسقة لخلق هذا الجو الرهيب المنفر من حال هؤلاء الكافرين الغارقين في ظلمات الضلال .

٥-اتساع الدلالة الرمزية :

أقصد بالدلالة الرمزية هنا الدلالة التي تُحمل على الدال ــ أيا كان ــ بغض النظر عن دلالته المعجمية ، وهي الدلالة الوضعية التي وضعت لها الكلمة في استعمال العرب .

فالكلمة قد تحمل دلالات أخر بعيدا عن دلالتها المعجمية قد ترتبط هذه الدلالات بتصورات أو ثقافات معينة ارتبطت باستعمال هذه الكلمة بصورة عامة أو في بيئة خاصة .

ومثال ذلك في القرآن الكريم ما توحي به دلالات الأحرف المقطعة التي ابتدأت ـا سور القرآن ، وسوف أقف هنا على دلالة أحد هذه الأحرف كمثال على ما أقرره هنا .

فسورة (ق) – على سبيل المثال -قد ابتدأت ـذا الحرف (**ق**): وقد اختلف المفسرون في نظر ـم إلى الحروف التي تفتتح ـا السور فمنهم من يكل علمها إلى الله تعالى، ويجعلها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فيقول في تفسير (ق) أو (ص) أو (الم)...إلخ (الله أعلم بمراده)[١٦١].

ومنهم من يرى أ ـا أحرف جيء ـا للاستفتاح والتنبيه وإثارة الذهن والانتباه[١٦٢].

ومنهم من يرى أن هذه الأحرف أنما جيء ـا للتنبيه على أن القرآن من جنس الأحرف التي يتكلم ـا العرب، ومع ذلك فهم عاجزون عن الإتيان بسور من مثله.

ويرشح أصحاب هذا الرأي لقولهم بأن هذه الأحرف قد اطرد بعدها ذكر القرآن الكريم كما في هذه السورة: **{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}** أو **{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}** [ص:١]، أو **{الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ}** [البقرة:١،٢]، أو **{الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ}** [آل عمران:١-٣]، أو يأتي موصوفًا بأنه ذكر أو تنزيل أو غير ذلك من أوصاف القرآن وأسمائه مثل: **{الم (١) تَنزيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [السجدة:١،٢]، ومثل: **{كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}** [مريم:١،٢] إلخ.

كما يدلل أصحاب هذا الرأي على ذلك بأن الحروف المذكورة في أوائل السور قد اشتملت على جميع صفات الحروف من الهمس والجهر، والتفخيم والترقيق، وغير ذلك، فكأ ـا أمثلة مما يتكلمون به، تدلل على أن القرآن من جنس هذه الأحرف وتقرر عجزهم عن مشا ـته ومناظرته[١٦٣].

ومنهم من يرى أن هذه الأحرف أسماء للسور، كما في الحديث: "كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم. السجدة"[١٦٤].

ومن المفسرين من يرى أن هذه الأحرف إنما هي إشارات ورموز لمعان تدل عليها بطريق الإيجاز والاختصار كقول الشاعر:

قلنا قفي لنا فقالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

تعني: وقفت.

وقال الآخر:

ما للظليم عال كيف لايا ينقد عنه جلده إذا يا

فقال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل. وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شرا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول: وإن شرا فشَرٌّ إلا أن تشاء، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق. الكلام والله أعلم[١٦٥].

ولا نريد أن نخوض هنا في سرد حجج كل فريق ودحضه للآراء الأخرى لأننا نرى أن هذه الأقوال كلها واقعة في دائرة الاجتهاد المأذون فيه، مع عدم وجود أدلة كافية للقطع بأحد هذه الآراء دون بقيتها، فهي جميعًا واقعة في دائرة الاحتمال.

وبدلا من محاولة ترجيح أحد هذه الآراء على غيرها فإننا سنقوم بمحاولة تطبيق هذه الآراء على هذه الحرف (ق) الذي افتتحت به هذه السورة الكريمة.

فنحن نرى أن البدء بهذا الحرف المبهم يدير الذهن في كل ما يتعلق به، وكل ما يمكن أن يكون إشارة إليه لاسيما في الأمر الذي يحتدم الصراع حوله، والموضوع الذي هو محل الخطاب بين المخاطَب والمخاطِب وهو أمر القيامة، وتنزل القرآن بإثبات البعث والمعاد الذي يكذبون به.

فيحتمل الذهن أن يكون ذلك إشارة إلى القيامة، ويحتمل أن يكون إشارة إلى القرآن، لاسيما وقد بدئت السورة بذكره وختمت بذكره، قال تعالى في بداية السورة: **{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١)}** وقال في آخرها: **{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥)}**.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى القفو والتتبع، فالله تعالى قافٍ أثرهم، يتتبعهم ليحشرهم ليوم لا ريب فيه[١٦٦] أو هو أمر بقفوِ القرآن أي: اتباعه أو هو أمر بالوقوف عند ما جاء فيه والعمل به[١٦٧].

كما يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى القول والمجادلة في أمر البعث والقيل والقال فيه، خاصة أن السورة قد اشتملت على كثير من الحوارات:

{فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق:٢]
{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} [ق:٢٣]
{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ} [ق:٢٧]
{قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} [ق:٢٨]
{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق:٢٩]
{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق:٣٠]
{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:٤٥]

ومما يرشح لذلك أن السورة تبدأ بحكاية قول الكافرين:

{فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق:٢]

وتختم بحكاية قولهم كذلك:

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:٤٥]

كما يحتمل الإشارة إلى أن القيامة (حق)، والقرآن الذي أخبر بذلك (حق)، والرسول الذي جاء بذلك (حق)، ومن ثم تكرر لفظ الحق في هذه السورة، كما في **{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [ق:٥]**
{وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}[ق:١٩]
{يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} [ق:٤٢]

ولا نريد هنا أن نثبت أو ننفي إشارة القرآن ذا الحرف إلى شيء من هذه المعاني، بقدر ما نريد أن نقول: إن من إعجاز هذا الحرف هو أنه يثير الذهن ويحركه لاحتمال هذه المعاني جميعًا وهي كلها معان صحيحة ومقصودة ومتآزرة مع معاني السورة ومقاصدها وليست غريبة عنها.

كما قد يكون المراد منه هو التنبيه وإثارة الذهن تنويهًا بعظم ما يتلى وأهمية الأمر الذي هو محل إعراض وتكذيب من الكافرين، أو محل غفلة من المؤمنين، فالاستعداد للموت واليوم الآخر الناس جميعا في غفلة عنه، متشاغلين بحيا م الدنيا، وإن تفاوتت درجة الغفلة بينهم إلا أ ا تعمهم جميعًا كافرهم ومؤمنهم.

كما قد يكون المراد ذا الحرف هو إثبات التحدي للكافرين، من جهة أنه حرف من جنس ما يتكلمون به، وقد عجزوا عن الإتيان بمثله، ومع ذلك يكذبون بمجيئه من عند الله، ويرشح لذلك ذكر القرآن ا يد بعده.

كذلك فإن هذا الحرف اسم لهذه السورة، وهذا يتفق مع قول من يرى أن هذه الأحرف أسماء للسورالتي بدأت ا[١٦٨]. وبعد ذلك كله نقول: كما قال بعض المفسرين: الله أعلم بمراده أيُّ ذلك هو المراد، وقد يكون ذلك كله مرادا ويكون ذلك من إعجاز القرآن في دلالة حروفه وكلماته على معان كثيرة كلها صحيحة متفقة مع سياقها ومقامها.

ولعل في هذا توفيقًا وجمعًا بين هذه الأقوال المتعددة في الحروف المفتتحة ا السور.

---

[1] – كان لاختلاف اللهجات – في غير القرآن – أثر واضح في كثير من الشواهد التي تطّرد وتعددت الأوجه في تحليلها، فالاختلافات اللهجية أمرٌ طبيعي عند أي جماعة لغوية، لأنه كلّما تعدّدت الأمكنة التي يقطنها أبناء اللغة الواحدة تعدّدت اللهجات لتلك اللغة .(انظر: فردينان ده سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة : ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر : المؤسسة الجزائرية للطباعة ، ب . ط ١٩٨٦ ، ص٢٤٤)

وإذا كانت اللهجات العربية متقاربة من حيث الخصائص العامة لانتمائها إلى أمّ واحدة هي الفصحى فإنّ هذا التقارب لا يعني التطابق والتماثل، بل يبقى لكلّ لهجة بعض الظواهر التي تميّزها من غيرها (للتوسع انظر مثلاً: إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية – طبعة مكتبة الأنجلو- ٢٠٠٣م- ص ١٥-٢٤)

[2] – ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]تفسير القرآن العظيم – المحقق : سامي بن محمد سلامة – الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة : الثانية١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م – (ج ٨ / ص ٣٣٨).

[3] – الملك : ١٤

[4] يوسف: ١٧ وسيأتي الحديث عن وجه ذلك في موضعه.

[5] فاطر :٣٢

[6] سيأتي الحديث عن المتواطئ تفصيلا .

[7] – اختلف الأصوليون في إمكان وقوع المشترك فأوجبه قوم، لوجهين:

"الأول: أن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية فإذا وزّع لزم الاشتراك ورُدَّ- بعد تسليم المقدِّمتين- بأن المقصود بالوضع متناهٍ.

والثاني: أنَّ الوجود يطلق على الواجب والممكن، ووجود الشيء عينه.

ورد بأن الوجود زايد مشترك، فإن سُلِّم: فوقوعه لا يقتضي وجوبه.

وأحاله آخرون؛ لأنه لا يفهم الغرض فيكون مفسدة. ونوقض بـ: أسماء الأجناس.

والمختارإمكانه؛ لجواز أن يقع من واضعين، أو واحد لغرض الإ ام حيث يصير التصريح سببًا للمفسدة.

ووقوعه للتردد في المراد من "القرء" ونحوه، ووقع في القرآن العظيم مثل: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ البقرة:٢٢٨.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ التكوير:١٧" شرح المنهاج للبيضاوي في علم الأصول- تحقيق د/عبدالكريم بن علي بن محمد النملة- ط مكتبة الرشد- الرياض- الأولى- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.- (١/٢٠٨).

وقال الآمدي: "اختلف الناس في اللفظ المشترك، هل له وجود في اللغة فأثبته قوم ونفاه آخرون، والمختار جوازه ووقوعه" الإحكام- (٢٤/١). الآمدي (سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد) - الإحكام في أصول الأحكام - دققها جماعة من العلماء- ط دار الحديث.

ثم أطال في توجيه الجواز كعادته في توجيه ما يذهب إليه.

وقد عرض الرازي في محصوله الخلاف في وقوعه وأطال فيه على عادته كذلك : المحصول في علم الأصول للفقه - تـ٦٠٦هـ- تحقيق د/طه جابر فياض العلواني- ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- السعودية- الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.(٣٦٠/١-٣٦٦).

ثم قال: "والأغلب على الظن وقوع المشترك" ومال إلى القول بوقوعه أكثر الأصوليين . انظر د/ النملة د/عبدالكريم بن علي بن محمد النملة - إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر - ط مكتبة الرشد- الرياض- الأولى- (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)- (١٧٨/١)، و الشوكاني(محمد بن علي)إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول- محمد بن علي بن محمد الشوكاني- ط دار المعرفة- بيروت- لبنان.- (١٩-٢٠)، ورد الشوكاني قول من قال: إنه غير واقع في القرآن فأيّد وقوعه في القرآن والسنة، وانظر تحفة المسئول في شرح مختصر منتهى السُّول للرهوني- (٣٠٥/١)، وما بعده، وقد أطال في بيان أدلة وقوعه ثم قال: "ووقع في القرآن على الأصح" وأطال في بيانه- (٣١٣/١)، والقول بوقوعه هو ظاهر كلام الشيرازي في اللمع- (٥-٦)، حيث ذكر أمثلته وتوجيهها، واختاره الأصفهاني في شرح المنهاج- (٢٠٨/١)، السبكي (علي بن عبدالكافي)الإ اج في شرح المنهاج- وولده تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي تـ٧٧١هـ- دراسة وتحقيق د/أحمد جمال الزمزمي- د/نور الدين عبدالجبار صغير- ط دار البحوث للدراسات الإسلامية- الإمارات- الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م- (٦٣٧/٣-٦٤٤)، وأثبت وقوعه في المسوّدة آل تيمية فجاء فيها (والأصل في هذا أن اللفظ المحتمل لشيئين فصاعدًا هو حقيقة في محتملاته- (١٥٠)، وعليه ظاهر الكلام شرح التلويح- (٦٦/١)، وهو الشرح المسمى بالتلويح في كشف حقائق التنقيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي تـ٧٩٢هـ- شرح به تنقيح الأصول لصدر الشريعة عبيدالله بن مسعود البخاري الحنفي تـ٧٤٧هـ، وهو تنقيح لكتاب فخر الإسلام البزدوي مع زيادة مباحث من كتاب المحصول ومباحث ابن الحاجب مع تحقيقات بديعة فصنف هذا الشرح ممزوجًا وسماه التوضيح في حلّ غوامض التنقيح- ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، وانظر من كتب الأصوليين المحدثين: ابن الوزير :أحمد بن محمد بن علي - المصفى في أصول الفقه- تـ ط دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان- الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م (٨٨٠).

[8] وما يقوله المانع لذلك من أن المشترك إن كان المقصود منه الإفهام فإن وجد معه البيان فهو تطويل من غير فائدة ، وإن لم يوجد فقد فات المقصود ، وإن لم يكن المقصود منه الإفهام فهو عبث وهو قبيح فوجب صيانة كلام الله عنه فهو مبني على الحسن والقبح الذاتي العقلي ." الإحكام في أصول القرآن - (ج ١ / ص ٦)

وهذه قضية كلامية من أصول المعتزلة ، وقد أطال العلماء في بطلا ا والرد عليها عموما ، وفي هذه النقطة خصوصا . السابق

[9] السابق ، وانظر بعض ما جاء من المشترك في القرآن كلفظ (القرء) واختلاف المفسرين في ترجيح أحد معنييه (الحيض والطهر) أحكام القرآن للجصاص – (ج ٢ / ص ٣٦٣)

[10] أحكام القرآن للجصاص – (ج ٣ / ص ٢١٨)

[11] أحكام القرآن للجصاص – (ج ٣ / ص ٢٣٥– ٢٣٧)

[12] أحكام القرآن للجصاص – (ج ٤ / ص ٢١٦)

[13] (التكوير:١٧)

[14] انظر تفسير الطبري للآية ، وقد ذكر ذلك المعنى صاحب الصحاح وغيره كما سبق ذكره. الجوهرى (إسماعيل بن حماد)الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية– تحقيق أحمد عبد الغفور عطار– دار الكتاب العربى

[15] (المدثر:٥١)

[16] تفسير الطبري – (ج ٢٤ / ص ٤٠)

[17] تفسير الطبري – (ج ١٩ / ص ٣٧٤)

[18] تفسير ابن كثير – (ج ٦ / ص ١٥٢)

[19] تفسير الطبري – (ج ١٩ / ص ٣٧٤)

([20]) انظر شرح المختصر للأصفهاني– (١٦٣/١)، والمحصول للرازي– (٣٥٩) وقد جاء فيه: "اللفظ المشترك هو: اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعًا أولا".

وقوله: "اللفظ" كالجنس يعم المشترك وغيره.

وقوله: "الواحد الموضوع لعدة معان"يخرج عنه الألفاظ المتباينة، والمتواطئة، والمشككة؛ لأ ـا لم توضع لعدة معان –بل لمعنى واحد، وإن كان ذلك مشتركًا بين الأفراد.

وقوله: "وضعًا أولا" يخرج عنهفالألفاظ المنقولة وا ـازية؛ فإ ـا وإن كانت موضوعة فلعدة معان ولكن لا وضعًا أولا" شمس الدين محمود عبدالرحمن الأصفهاني: شرح المنهاج للبيضاوي في علم الأصول– مكتبة الرشد– الرياض– (٢٠٩/١).

وقد ورد في شرح التعريف بعض ما يتداخل مع المشترك كالمتواطئ والمتباين كما قد يقارن بينه وبين المترادف لكونه عكسه، أو ا ـاز لكونه مما يلتبس به، ويفرق بينهما من جهة الوضع وعدمه، لذا نزيد هذا التعريف إيضاحًا فنقول:

"ينقسم اللفظ المفرد من حيث اللفظ والمعنى الدال عليه إلى سبعة أقسام:

١–المنفرد: وهو أن يتوحد اللفظ ويتوحد المعنى مثل لفظ "الله" فإن لفظه واحد ومعناه أي مدلوله واحد.

٢–المشترك: وهو أن يكون اللفظ واحدًا والمعاني متعددة مثل لفظ "العين" فهو يدل على معانٍ متعددة منها: العين الباصرة، والعين الجارية، والذهب، والجاسوس، ومثل لفظ "القرء" فهو يدل على الطهر وعلى الحيضة.

٣–المتواطئ: سبق تعريفه وذكر حدّه في متن البحث .

٤–المترادف: وهو أن يتعدد اللفظ ويكون المعنى واحدًا مثل: الليث الهزبر، والوَرد، فهي تدل على معنى واحد وهو

الحيوان المسمى بالأسد، ومثل: الصلهب والشوذب تدل على الطويل.

٥-المتباين: وهو ما تعدد لفظه وتعدد معناه مثل: الأبيض والأسود، ومثل الوجود والعدم، ومثل السماء والأرض، ومثل الرجل والمرأة، ومثل أسد، محمد، كتاب.

وهو أغلب ألفاظ اللغة.

٦-الحقيقة: الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولا في اللغة. مثل لفظ "الأسد" إذا استعمل ليدل على الحيوان المفترس كقولك: رأيت أسدًا ضخمًا في حديقة الحيوانات.

والحقيقة اللغوية تقسم إلى قسمين:

أ-الحقيقة اللغوية الوضعية:

وهي اللفظ الذي وضعه أهل اللغة ابتداءً للمعنى مثل لفظ "رجل" للذكر البالغ، ومثل لفظ "أسد" للحيوان المفترس.

ب-الحقيقة اللغوية المنقولة:

وهي اللفظ الذي وضعه أهل اللغة ابتداءً لمعنى، ثم نقله أهل اللغة أو الشرع إلى معنى آخر، وبذلك يكون إما حقيقة لغوية عرفية، وإما حقيقة لغوية شرعية.

١٧- ـاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً في اللغة بقرينة تمنع إرادة الحقيقة. فاللفظ قد يستعمل على الحقيقة وقد يستعمل على ا ـاز بقرينة، مثل لفظ "رقبة" في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ النساء:٩٢.

فهي استعملت على سبيل ا ـاز لتدل على "عبد مملوك"فأطلق عليه رقبة، لأ ـا جزء من العبد، فتكون العلاقة هي الجزئية. ومثل: رأيت أسدًا يقود الجيش، فلفظ "أسد"تعمل على سبيل ا ـاز وذلك لعلاقة المشا ـة في الشجاعة بين الرجل الشجاع والأسد. ومثل قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يوسف:٣٦ ، فكلمة خمر استعملت مجازًا، فالذي يعصر العنب وليس الخمر، فاستعملت "خمرًا" مجازًا لتدل على العنب لعلاقة ما سيكون عليه العنب.

والعلاقات والقرائن التي تدل على أن اللفظ استعمل مجازًا أي استعمل في غير ما وضع له أولا، هذه العلاقات والقرائن متعددة ومتنوعة تناولها علماء اللغة والبلاغة بالبحث والتفصيل، فمن أراد الإلمام ـا فليرجع إليها في مظا ـا . انظر : محمد حسين عبدالله – الواضح في أصول الفقه- ط دار البيارق- الثانية ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- (٣٥٥-٣٥٨)، وانظر اتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر- (١/١٧٠-١٩٦).وانظر في حدَّي الحقيقة وا ـاز وبيا ـما تفصيلا ما جاء في مبحث الحقيقة وا ـاز في شروح التلخيص تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – طبعة المكتبة العصرية – بيروت .

[21] انظر:اتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر- (١/١٧٠-١٩٦)وانظر:الواضح في أصول الفقه- (٣٥٥-٣٥٨) قلو"ظن في أشياء أ ـا مشتركة وهي متواطئة وفي أشياء أ ـا متواطئة وهي مشتركة أما الأول فكقولنا مبدأ للنقطة والآن ؛فإنه لما اختلف الموضوع المنسوب إليه وهو الزمان والخط ظن الاشتراك في اسم المبدأ وليس كذلك

فإن إطلاق اسم المبدأ عليهما إنما كان بالنظر إلى أن كل واحد منهما أول لشيء لا من حيث هو أول للزمان أو الخط وهو من هذا الوجه متواطئ وليس بمشترك.

وأما الثاني فكقولنا خمري للون الشبيه بلون الخمر وللعنب باعتبار أنه يؤول إلى الخمر ،وللدواء إذا كان يسكر كالخمر أو أن الخمر جزء منه ؛فإنه لما اتحد المنسوب إليه وهو الخمر ظن أنه متواطئ وليس كذلك فإن اسم الخمري وإن اتحد المنسوب إليه إنما كان بسبب النسب المختلفة إليه ،ومع الاختلاف فلا تواطؤ .نعم لو أطلق اسم الخمري في هذه الصور باعتبار ما وقع به الاشتراك مرعموم النسبة وقطع النظر عن خصوصيا ما كان متواطئاً." الإحكام في أصول القرآن – (ج ١ / ص ٦)

[22] – فاطر :٣٢

[23] – انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣٢-٣٣ بتصرف يسير .

[24] أحكام القرآن للجصاص –وفيه : فَإِنْ قِيلَ : لا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَفْظِ وَاحِدٍ ؛ لأَنَّهُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ لِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لأَنَّ جَمِيعَ وُجُوهِ الذِّكْرِ عَلَى اخْتِلافِهَا رَاجِعَةٌ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ .

فَهُوَ كَاسْمِ الإِنْسَانِ يَتَنَاوَلُ الأُنْثَى وَالذَّكَرَ ، وَالأُخُوَّةُ تَتَنَاوَلُ الإِخْوَةَ الْمُتَفَرِّقِينَ ، وَكَذَلِكَ الشَّرِكَةُ وَنَحْوُهَا ، وَإِنْ وَقَعَ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنَّ الْوَجْهَ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ الْجَمِيعُ مَعْنًى وَاحِدٌ .

وَكَذَلِكَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى فِيهِ طَاعَتَهُ ، وَالطَّاعَةُ تَارَةً بِالذِّكْرِ بِاللِّسَانِ ، وَتَارَةً بِالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ ، وَتَارَةً بِاعْتِقَادِ الْقَلْبِ ، وَتَارَةً بِالْفِكْرِ فِي دَلائِلِهِ وَحُجَجِهِ ، وَتَارَةً فِي عَظَمَتِهِ ، وَتَارَةً بِدُعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ ، جَازَ إِرَادَةُ الْجَمِيعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ،كَلَفْظِ الطَّاعَةِ نَفْسِهَا جَازَ أَنْ يُرَادَ بِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ عَلَى اخْتِلافِهَا إِذَا وَرَدَ الأَمْرُ بِهَا مُطْلَقًا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } وَكَالْمَعْصِيَةِ يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ جَمِيعَهَا لَفْظُ النَّهْيِ .

فَقَوْلُهُ : { فَاذْكُرُونِي } قَدْ تَضَمَّنَ الأَمْرَ بِسَائِرِ وُجُوهِ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا سَائِرُ وُجُوهِ طَاعَتِهِ وَهُوَ أَعَمُّ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالذِّكْرِ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالاعْتِرَافِ بِنِعَمِهِ . (ج ١ / ص ٢٢٨)

[25] البيان والتبيين – (ج ١ / ص ٣١) في سؤال معاوية بن أبي سفيان لصُحارِ بن عَيّاش العبديّ " قال له معاوية: ماتعدُّون البلاَغَةَ فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاويةُ: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ"

[26] " النكت والعيون – (ج ٤ / ص ٣٨٨ – ٣٨٩)

[27] قال :"قيل :كناية عن طهارة العمل ، المعنى : وعملك فأصلح ، قاله مجاهد وابن زيد . وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب؛ وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ...، وقيل : كنى عن النفس بالثياب ، قاله ابن عباس . ... وقيل :كنى ـا عن الجسم .... وقيل : كناية عن الأهل ، قال تعالى : { هن لباس لكم } والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفائف . وقيل : وطئهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر . وقيل : كناية عن الخلق ، أي وخلقك فحسن ، قاله الحسن والقرطبي ، ومنه قوله :

ويحيي ما يلائم سوء خلق ... ويحيي طاهر الأثواب حر

أي : حسن الأخلاق ." أبو حيان الأندلسى (محمد بن يوسف ت٧٤٥هـ)تفسير البحر المحيط- تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض- ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. - (ج ١٠ / ص ٣٧٨)

[28] السابق

[29] تفسير الألوسي - (ج ٢١ / ص ٣٩٩)

[30] تفسير الألوسي - (ج ٢١ / ص ٤٠١)

[31] تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

[32] تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

[33] تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

[34] (البقرة :١٩٧)

[35] الأنعام: ١٤١

[36] الشمس: ٩، ١٠

[37] فصلت: ٦، ٧

[38] انظر لسان العرب مادة (زكي)

[39] الأعلى :١٤

[40] الشمس : ٩

[41] تفسير ابن كثير - (ج ٥ / ص ٤٦٢)

[42] فصلت:٧- تفسير ابن كثير - (ج ٧ / ص ١٦٤)

[43] المؤمنون :١

[44] الماعون

[45] تفسير الطبري - (ج ١٧ / ص ٥٨٦)

[46] تفسير الطبري - (ج ١٧ / ص ٥٨٨)

[47] يوسف: ١٧

[48] النور :٢٧

[49] تفسير الطبري – (ج ١٩ / ص ١٤٥)

[50] تفسير الألوسي – (ج ١٣ / ص ٣٩٥)

[51] تفسير ابن كثير – (ج ٦ / ص ٤٠)

[52] الأحزاب : ٥٣

[53] الزمخشرى (جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – ط دار المعرفة– بيروت– لبنان– (ج ٤ / ص ٣٩٦) وقد أفاد الرازي من كلام الزمخشري فذكر نحوه في تفسيره : (ج ١١ / ص ٢٩٥) ، وبنحو ما جاء عن المفسرين جاءت تفسيرات اللغويين لهذه الكلمة : انظر : مادة (أنس) على سبيل المثال في كل من : (ابن منظور – لسان العرب — ط دار المعارف— الأزهري – تذيب اللغة — ط دار الكتب العلمية — بيروت —الزبيدى(السيد محمد مرتضى)تاج العروس– ط دار بيروت)

[54] بنت الشاطئ — الإعجاز البياني للقرآن الكريم — ص ٢٠١

[55] التحريم:٤

[56] أبو عبيدة معمر بن المثنى– مجاز القرآن– تحقيق د/ محمد فؤاد سزكين ط الرسالة ١٩٨١م.
ص٢٦١ – تحقيق محمد فؤاد سزكين – ط مؤسسة الرسالة

[57] انظر سيبويه – الكتاب– تحق أ/ عبد السلام هارون٣/٦٢١، المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل تحقيق، محمد كامل بركات٣/ ٣٣٨، شرح الشافية لابن الحاجب١٤٧/١ ط دار الكتب العلمية– تحقيق محمد نور الحسن وزميليه، وشرح لامية الأفعال– تحقيق د/ محمد حسن يوسف ص ١٠١، وانظر د/ على أحمد طلب(صيغة فعيل واستعمالا ا فى القرآن الكريم) مطبعة الأمانة مصر سنة ١٩٨٧، وانظر د/ فاضل مصطفى الساقى/ أقسام الكلام العربى من حيث الشكل والوظيفة ص ٣٠٦–٣٠٧ ط مكتبة الخانجى بالقاهرة .

[58] وهذا النوع من الاشتراك قد عنى بجمعه والتنبيه عليه علماء اللغة القدامى فمن ذلك ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه (أدب الكاتب) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)أدب الكاتب تحقيق محمد الدالى ط٢ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م. باب (أفعلت وأفعلت) بمعنيين متضادين: (أشكيت الرجل): أحوجته إلى الشكاية، وأشكيته: نزعت عن الأمر الذى شكانى له، و(أطلبت الرجل): فأحوجته إلى الطلب، ولذلك قالوا: ماء مطلب، إذا بعد فأحوج إلى طلبه، و(أطلبته): أسعفته بما طلب. و(أفزعت القوم)أحللت م الفزع، (وأفزعتهم): إذا أحوجتهم إلى الفزع، (وأفزعتهم) إذا فزعوا إليك فأعنتهم. . . أدب الكتاب ص ٤٥٣

[59] (الأنفال:٥٤)،انظر شرح الشافية ٨٨/١، والكتاب٢٣٥/٢

[60] انظر شرح الأشمونى ٥٢١/٢– تحق محيى الدين، وانظر الشافية٨٦/١، والكتاب ٤/٢، ٢٣٣–٢٣٥

[61] د/ شكرى عياد – السابق

[62] د/ تمام حسان – اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٦٣

[63] د/ تمام حسان – اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٦٣

[64] (المؤمنون: ٢٩)

[65] انظر: ابن هشام (عبد الله بن يوسف)نزهة الطرف فى علم الصرف- تحقيق ودراسة دأحمد عبد ا يد هريدى- مكتبة الزهراء – القاهرة ص ١٠٦

[66] انظر نزهة الطرف لابن هشام ص ١٠٦، وانظر الكشاف ٤٦/٣ ٤٧، و ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب)المحرر الوجيز- تحقيق على عوض وزميله- دار الكتب العلمية ١٤٢/٤، و السمين الحلبي (شهاب الدين أبو العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم)الدر المصون في علم الكتاب المكنون – تحقيق علي محمد معوض- عادل أحمد عبدالموجود وآخرون- ط دار الكتب العلمية- الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م ٥ ١٨٠، والألوسى : شهاب الدين أبو الفضل محمود الألوسي –روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ٢٨/١٧

[67] (النساء: ٣١)

[68] انظر الدر المصون ٣٥٣/٢

[69] (الزمر: ٧١-٧٣)

[70] انظر الكشاف ٣٥٨/٣، وانظر الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي – تفسير الجلالين – الناشر : دار الحديث — القاهرة – الطبعة الأولى ص ٦١٦

[71] (الإسراء: ٨٠)

[72] انظر الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)جامع البيان في تفسير القرآن- ط دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م- ١٠٠/١٥

[73] انظر الطبرى ١٠١/١٥، وانظر الكشاف ٣٧٢/٢

[74] انظر الجلالين ص ٣٧٥

[75] انظر الجلالين ص ٣٧٥

[76] القيامة: ١٤

[77] انظر معانى القرآن ٥٧١/٢

[78] انظر مجاز القرآن٢٧٧/٢

[79] انظر الرازى ٢٧/١٦ وقد ذكر هذه الأقوال الثلاثة بشيء من التفصيل، وانظر الفيروزآبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب)بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز- ط دار الكتب العلمية- بيروت.

[80] ق: ٢٢

[81] انظر الراغب الأصبهانى(أبو القاسم الحسين بن محمد) المفردات – ط دار المعرفة- بيروت.ص ٤٩

[82] انظر الفيروزآبادى ٢/ ٢٢٢

[83] الكشاف ٨/٤

[84] ق: ١-٥

[85] السجدة: ١٠

[86] تفسير الجلالين ص ٥٤٦

[87] المزمل: ٨

[88] انظر الكشاف ١٥٣/٤ / الألوسى ١٠٦/٢٩، والدر المصون ٤٠٥/٦، والجلالين ص٧٧٣ و القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري)الجامع لأحكام القرآن- ط دار الريان للتراث. ٦٨٣٦/١٠.

[89] انظر الكشاف ١٥٣/٤.

[90] انظر الألوسى ١٠٦/٢٩.

[91] الأنبياء:٧٧

[92] انظر ابن كثير ١٨٦/٣.

[93] انظر الألوسى ١٠٦/٢٩،٧٥.

[94] انظر: الحملاوى (أحمد بن محمد بن أحمد) شذا العرف فى فن الصرف ط مصطفى الحلبى، وأخرى ط مكتبة الآداب- تحقيق د/ حسنى عبد الجليل.

ص ٤٥.

[95] انظر شذا العرف ص ٤٣.

[96] انظر شذا العرف ص ٤٥.

[97] انظر الرازى (فخر الدين محمد بن عمر).تفسيره- مفاتيح الغيب- ط دار الغد العربى ٨٠٥/١٥، ٨٠٦.

(١) انظر الكشاف ١٧٨/٤، والدر المصون ٤٦٥/٦، ٤٦٦، ٤٦٧، المحرر ٤٢٨/٤٢٧/٥ والألوسى ١٦/٣٠، ١٧، ١٨، والأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة)معانى القرآن- تحقيق د/ فائز فارس ٥٢٥/٢.

(١) الكشاف ٦٧/٢.

(٢) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، -- أبو السعود ٢٣٥/٣.

(٣) انظر الجلالين ص ٢٠٢.

(٤) الألوسى ١٥١/٨.

(٥) الطيبى (الحسين بن عبد الله بن محمد)التبيان فى المعانى والبيان-ط المكتبة التجارية- مكة المكرمة- تحقيق/ عبد الحميد هنداوى ١٧١/١.

(٦) انظر العدول إلى اسم الفاعل.

(٧) انظر الألوسى ١١/٢، والكشاف ١٠١/١، وانظر الرازى ٥٠٩/٢.

(١) انظر الدر المصون ٤٠١/١.

(٢) انظر الظلال ١٣٥/١.

(٣) انظر الرازى ٧١٧/١٦-٧١٨.

(٤) (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى) مسائل الرازى وأجوبتها(من غرائب أى التنزيل) ط مصطفى الحلبى.

ص ٣٨٦ وانظر الكشاف ٢٣٨/٤.

(٥) انظر البحر المحيط ٥٢٢/٨ الألوسى ٢١٥، المحرر الوجيز ٥/الدر المصون ٥٨٠/٦، الطبرى ٢١٣/٣٠، القرطبى ٧٣١٨/١٠.

(١) ابن تيمية (تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام)دقائق التفاسير- جمع وتحقيق د/ محمد الجليند- ط مؤسسة علوم القرآن .

٣٢٥/٦، ٣٢٦.

(٢) انظر الدر المصون٥٨٢/٦.

(٣) القرطبى ٧٣١٨/١٠.

(١) الألوسى ٢٥١/٣٠-٢٥٢.

(٢) تفسير سورة الكافرون والمعوذتين للإمام ابن القيم ص ٧-٨ السنة المحمدية.

(١) دقائق التفاسير ٣٢٧/٦- ٣٢٨.

(٢) الكشاف ٢٦٨/٢، الألوسى ٢٧/١٣.

[98] لما كان مصطلح التضمين من المصطلحات التي تنازعتها علوم وفنون شتّى بدلالات اصطلاحية متباينة أو متفاوتة لذا فقد لزم التفريق بين إطلاقات هذا المصطلح في كل فن من تلك الفنون التي تنازعته ،حيث إن دلالته في علوم اللغة تختلف عنها في علوم الشريعة ، ودلالته النحوية تختلف عن دلالته في مجالات البلاغة والأدب والنقد ، وهذا الاختلاف ليس من باب الاختلاف اللفظي ، وذلك لأن هذه الفنون التي قد استعارت هذا المصطلح لا تعبر به في الحقيقة عن ظاهرة واحدة بل تعبر به عن ظواهر متعددة ، الأمر الذي أوقع بعض الباحثين في خطأ نقل كلام بعض الدارسين لإحدى هذه الظواهر في حديثه عن ظاهرة أخرى تختلف كلّ الاختلاف عن الظاهرة التي هو بصدد دراستها – وقع ذلك في كلام منشور لبعض الباحثين في دوريات غير مسئولة أو متخصصة فلذلك تركت الاستشهاد به أو الإشارة إلى صاحبه – حيث استشهد بكلام يتعلق بنوع من التضمين يعرف بالتضمين العروضي فاستشهد به ضمن حديثه عن التضمين النحوي أو ما يمكن أن نسميه بالتضمين الدلالي .

[99] انظر اللسان والمحيط و تذيب اللغة : ضمن

[100] ثمة أنواع أخر من التضمين – لا تدخل في إطار بحثنا – أحب أن أشير إليها إتماما لتحديد المصطلح المقصود ، منها :

التضمين في الشعر (التضمين العروضي):

التضمين في الشعر مأخوذ من معناه في اللغة ،قال ابن سيده في المحكم :"والمضمَّن من أبيات الشعر ما لم يتم معناه إلا في البيت الذي بعده ، وليس بعيب عند الأخفش وأن لا يكون تضمين أحسن ....

قال النابغة :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عُكاظ إنِّي

شهدت لهم مواطن صادقات أتيتهم بودِّ الصدر منِّي"

المحكم (ضمن) تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي . ط دار الكتب العلمية . بيروت (٢١٤/٨)

التضمين الفقهي :

وهو التغريم لأن المضمَّن (المغرَّم) يلتزم أداء هذا الغرم أو الحق فكأنه متضمن له ، وذلك من قولهم :

(ضمّنته الشيء تضمينا فتضمنه عني : غرّمته فالتزمه) كشاف اصطلاحات الفنون ٨٩٥/٢

التضمين البديعي :

التضمين البديعي هو أن يعمد الشاعر أو الناثر إلى بيت شعر أو عبارة لغيره فيضمنها كلامه ، شعرا كان أو نثرا ، على سبيل التمثيل.و هذا عرفه ابن الأثير فقال: "أن يضمِّن الشاعر شعره و الناثر نثره كلاما آخر لغيره ، قصد الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود" ابن الأثير(ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم) المثل السائر، تقديم وتعليق د/ أحمد الحوفي، د/بدوى طبانة، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ٢٠١/٣.

ذكر ابن الأثير هذا النوع ضمن ما أورده من فنون البديع ، ولذا فقد سميناه بالبديعي ، وإن لم يسمه هو بذلك – وأمثلته كثيرة شهيرة ولا حاجة إلى الإطالة بذكرها .

[101] البقرة: ١٨٧

[102] وهو من شواهد ظاهرة التضمين ، وإن لم يسمها ابن جني بذلك – الخصائص – (ج ١ / ص ٢٢٦)

[103] مغني اللبيب ٦٨٥/٢

[104] رسالة في التضمين مخطوط ق ٢٢٣

[105] الأعراف:١٠

[106] الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ٥٤

[107] الأنبياء:٧٧

[108] ومن ثم ذهب جماعة من المصنفين في حروف العربية ومعهم علماء الكوفة وآخرون ممن سماهم ابن قيم الجوزية في بدائع الفوائد – ط/ دار الفكر– بيروت:٩٢٠بظاهرية النحاة إلى حلّ هذه الإشكالية بالقول بنيابة الحروف أو بوقوع التضمين فيها ، وهذا ما نجده في العديد من كتب هذا الفن مثل " رصف المباني " للمالقي و " الجنى الداني " للمرادي ، و "مغني اللبيب " لابن هشام ، و" مصابيح المغاني " للموزعي ، ، فالفعل إذاً باقٍ على معناه المعهود ، ولم تنتقل دلالته المعنوية إلى معنى فعل آخر ، واختلاف المعنى محصور في الحرف ، إذ اكتسب معنى حرف آخر يستحق هذه التعدية .وممّن ينحو هذا المنحى في التفسير الإمام ابن قتيبة في كتابه " ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) تأويل مشكل القرآن– شرح ونشر السيد أحمد صقر– دار التراث– القاهرة– ط٢– ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

" تأويل مشكل القرآن : ٥٦٧،وقد عقد باباً بعنوان " دخول بعض حروف الصفات مكان بعض " ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : { وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} (طه: ٧١)فيرى أن حرف الجر (في) بمعنى (على) ، والمعنى : على جذوع النخل ، وبقوله تعالى : { فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}(الفرقان :٥٩) أي : عنه ، وبقوله تعالى :{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى}(النجم :٣)

أي بالهوى ، فحرف الجر " عن " بمعنى الباء.

أما ابن هشام في " مغني اللبيب " فقد عبّر عن هذا الباب بالمرادفة مغني اللبيب:١٤٨/١

وأورد طائفة من الآيات على هذا المصطلح . ومن ذلك قوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}(الشورى :٢٥) فيرى أن الحرف (عن) مرادف للحرف (من) فيكون المعنى :" وهو الذي يقبل التوبة من عباده " ..

(109)التضمين في الأفعال هو مذهب البصريين و يقابله عند الكوفيين تناوب الحروف ، أو التضمين فيها ،وقد ذهب إليه ابن عربي الإشبيلي والزمخشري وابن هشام وأبو البقاء الكفوي وكذلك الحافظ السيوطي فيما سيأتي ذكره عنهم وعن غيرهم ،وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير مذهب التضمين . ورجحه من المعاصرين كثير منهم الشيخ محمد الخضر حسين في دراسات في العربية وتاريخها ،وأحمد حسن حامد في كتابه (التضمين في العربية-بحث في البلاغة والنحو) وقد ذهب إلى أن التضمين هو إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه لمعناه، وهو نوع من ا ـاز ولا اختصاص للتضمين بالفعل بل يجري في الاسم أيضاً. و د/ محمد نديم فاضل في كتابه (التضمين النحوي في القرآن الكريم) وهذه الدراسة القيمة ذهب فيها الباحث إلى القول بالتضمين في الأفعال والأسماء أما التضمين في الحروف فقد رفضه الباحث واستقبحه واستضعفه ،كذلك فقد رجح مذهب التضمين حسن عزام في كتابه : غاية المأمول في الفعل الواصل وأسرار الموصول ،المطبوع بالإسكندرية سنة ١٣٥٤هـ

110 البقرة :١٨٧

(111) د/ محمد نديم فاضل (التضمين النحوي في القرآن الكريم) طبع ونشر مكتبة دار الزمان- بالمدينة المنورة ٣٦٧/١

(112) الكشاف :٢٥٧

(113) أحكام القرآن :١٧٧/١

114 آل عمران :١١٧

(115) مغني اللبيب : ٧٦٢/٢

(116) معترك الأقران : ٣٩٨

(117) ومن الأمثلة التي وقفنا عندها في ذلك :

قوله تعالى : " وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (الأنبياء :٧٧)

وقوله تعالى : " وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ "(طه:٧١)

وقوله تعالى :" أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ " (البقرة: ١٨٧)

وقوله تعالى :" فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ " (البقرة :٢٥٩)

وقوله تعالى :" هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى " (عبس :١٨)

وقوله تعالى:(سأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) (المعارج :١)

وقوله تعالى:{ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ } (البقرة :١٤)

وقوله تعالى:"وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ" (البقرة:٧٦)

(118) الشوكاني - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – ط دار المعرفة – بيروت لبنان– (ج ٥ / ص ٢٥٦)

(119) تفسير البيضاوي – (ج ٤ / ص ٣٩١)

(120) الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير– ط الدار التونسية للتوزيع والنشر – (ج ١٣ / ص ٤٨١)

(121) وقد سبق نقل كلام الإمام الطبري حول هذه الآية وترجيحه لمذهب التضمين فيها عند الكلام على موقف المفسرين من التضمين

(122) تفسير ابن كثير – (ج ٢ / ص ٤٥

(123) تفسير الألوسي – (ج ٢٠ / ص ٤٩٢

(124) الجنى الداني في حروف المعاني – (ج ١ / ص ٦٥)

(125) مجموع فتاوى ابن تيمية – (ج ٣ / ص ١٩٣)

(126) انظر كلام الألوسي في تفسيره (المائدة : ٤٠)عن التضمين في هذه الآية ، وأنه ضمن الاسم (صيغة المبالغة) : (سماعون) ضمنها معنى (قابلون) .

(127) الألوسى ٢٩/ ٧٥– الدر المصون ٣٨٤/٦– الكشاف ١٢٤/٤.

(128) الكشاف/ السابق، المحرر ٣٧٥/٥، الألوسى السابق، الدر المصون السابق.

(129) الرازى ٧٤٣/١٥–٤٤.

130 الأنعام :٩١

131 يونس:٣١

132 الرعد :١٦

133 النمل : ١٢

134 الكشاف – (ج ١ / ص ١)

135 رواه الخطيب والرهاوي وضعفه الألباني في ضعيف الجامع .

136 النمل :٦٤

137 الكشاف – (ج ٥ / ص ١٦٧)

[138] التحرير والتنوير – (ج ١٠ / ص ٤٢٥)

[139] التحرير والتنوير – (ج ١٠ / ص ٤٢٥)

[140] النساء :١٢٧

[141] سورة البقرة، الآية "١٣٠".

[142] البحر المحيط ٥٦٥/١.

[143] السابق

[144] السابق

[145] السابق

[146] السابق

[147] سورة يوسف، الآية "١٨ "

[148] البحر المحيط ٢٨٩/٥.

[149] انظر مثلاً: كتاب سيبويه٤٨/١، ٤٩، ١٨١، ٢١٣، ٢٧/٢، ٢٩، ٣١، ٤٧– ٤٨ومعاني القرآن للفراء٢٣٤/٣.

[150] سورة الأعلى، الآية "١"

[151] مغني اللبيب ص ٧٢٢.

[152] سورة الأنبياء، الآية "٥٠ ".

[153] مغني اللبيب ص٥٦١.

[154] تبارك :١٤

[155] (النجم :١٨)

[156] المحرر الوجيز – (ج ٦ / ص ٢٢٦)

([١٥٧]) انظر تفسير البحر المحيط (١٢٠/٨).

[158] (الرعد :٢٧)

[159] نظرا لاتساع الكلام في هذا النوع وكثرة تفرعه واختلاف طبيعته عن الأقسام السابقة ؛ فقد رأيت أن أفرده ببحث مستقل .

[160] سورة النور

([١٦١]) انظر على سبيل المثال تفسير الجلالين في هذا الموضع.

([١٦٢]) انظر على سبيل المثال تفسير الزمخشري (١٣٨/١)، وابن كثير في تفسير (الم. البقرة) (٣٨،٣٩/١) حيث نقلا هذا القول عن بعض المفسرين.

([١٦٣]) انظر في تفصيل هذا المذهب تفسير الكشاف للزمخشري (١٣٨/١–١٣٩) ط مكتبة العبيكان.

([١٦٤]) انظر تفسير ابن كثير (٣٦/١) في تفسير (الم) [البقرة :١].

(١٦٥) انظر تفسير ابن كثير ص(٣٨/١)- المكتبة التوفيقية.

(١٦٦) قلت: هذا اجتهاد مني وهو قريب مما قاله الألوسي في هذا الموضع.

(١٦٧) انظر الألوسى- روح المعاني (١٧١/٢٦).

(١٦٨) وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انظر تفسير ابن كثير (٣٧/١).

ملخص البحث

يحاول هذا البحث أن يرصد أبرز الصور أو النماذج لاتساع المعنى وتعدده في القرآن الكريم ، وذلك بغية الوقوف على جماليات الأسلوب القرآني وإعجازه في توظيف ذلك الاتساع وتلك التعددية الدلالية لخدمة السياق القرآني.

يقسم البحث صور وأضرب الاتساع في المعنى إلى الأقسام التالية :

١-اتساع الدلالة المعجمية :

ويتناول الحديث عن اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي والمتواطئ والجمع بين الحقيقة والمجاز والمعنى اللغوي والشرعي وجوامع الكلم .

٢-اتساع الدلالة الصرفية :

وذلك نم خلال المعنى الوظيفي للصيغة ، ومن خلال تعدد دلالتها،ومن خلال ما تشتمل عليه من العدول.

٣-اتساع الدلالة النحوية :

وذلك من خلال التضمين النحوي والحذف والعدول و من خلال تعدد التوجيه الإعرابي للكلمة ،والاحتمال في الإحالة.

٤-اتساع الدلالة البيانية :التصويرية:

وذلك من خلال عرض بعض الصور القرآنية .

٥-اتساع الدلالة الرمزية:

وقد مثل البحث لها بالحروف المقطعة في أوائل السور ، وبين ما تشتمل عليه من دلالات رمزية رائعة .

The abstract of thesis

Aestheticals of meaning multiplicity and its extensiveness

at houily KORAN.

The thesis is divided into a preface, an introduction, 5 chapters and conclusion.

A preface is considered of the study of the word's form, and its great sharply in the development of rhetorical studying in Holy Koran

An introduction is focused on "word's form" it's boundary and meaning to

qualify the frame of the thesis and its ground in Aestheticals of meaning multiplicity and its extensiveness at all houily KORAN.

The thesis is divided into 5 chapters according to the meanings forms of meaning multiplicity and its extensiveness.

The thesis Studied every chapter of the 5 alon from all levels of meaning , at the words and sentenses .

Conclusion contain the important point in this thesis.